١٦ م نملك



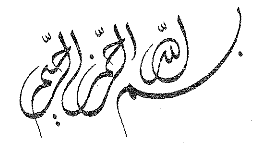
مقرر

توحيد (١) عقد (٣٠١١)

<u>هدف المقرر الرئيسي</u>

أن يتعرف الطالب على مقدمات في علم العقيدة، وما يتعلق بوجود الله تعالى، وبيان حقيقة توحيد الإثبات والمعرفة ولوازمه، وحقيقة توحيد القصد والطلب ولوازمه؛ وما يناقض ذلك، وإكسابه المهارات اللازمة للرد على المخالفين.





الحمد لله، و الصلاة و السلام على رسول الله، و على آله و صحبه ومن اهتدى بهداه وأحب من والاه، وأبغض من عاداه .

أما بعد :

اعلم وفقك الله لكل خير: أن علم العقيدة هو أشرف العلوم و أجلّها، و مما يُبين ذلك ما يلي :

١-أن شرف العلم بشرف موضوعه، و من موضوع هذا العلم الجليل : العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته، و هذا أشرف المطالب.

٢-أن العقيدة هي أساس الدين، ومنزلتها في الدين بمنزلة الروح من البدن؛ فالعمل مهما كثر و نفع لا يُقبل إذا كان أصل الدين معدوماً، قال تعالى: ((**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ**))، و ثبت في الصحيح أن عائشة - رضي الله عنها – قالت: يا رسول الله : ابن جدعان كان يصل الرحم، و يقرئ الضيف، و يعين على نوائب الدهر، فهل ذلك نافعه؟، قال عليه الصلاة والسلام: " لا؛ إنه لم يقل يوما: ربي اغفر لي خطيئتي يوم الدين".

٣-أن العلم بالله – تعالى- و أسمائه وصفاته، وما يلزم منه: من صرف العبادة له وحده، هي الحكمة في الخلق و الأمر، فقد دلت النصوص أن حكمة مأمورات الله – سبحانه - و مفعولاته، تتضمن:

أ – معرفة الرب بأسمائه و صفاته؛ قال تعالى: ((**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**)) و قال : ((**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ**

وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) .

ب- عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ((**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**)).

٤-أن توحيد الله – تعالى – الذي هو أصل الاعتقاد، من أجله أرسل الله الرسل، ولا تحصل النجاة إلا به، قال تعالى : ((**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**))، وقال : ((**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**)) .

معنى العقيدة

لغة: العقيدة مأخوذة من العقد، وهو أصل يدل على ربط و إحكام و شدٍ و شِدَّة وثوق، يقال: عقد طرفي الحبل إذا وصل أحدهما بالآخر بعقدة فأحكم وصلهما.

اصطلاحاً : حكم الذهن الجازم . أو : التصديق الجازم .

فمن اعتقد شيئا يكون عقد قلبه عليه و جزم به، فإن وافق الحق كانت عقيدته صحيحه، و إلا كانت باطلة .

و **العقيدة الإسلامية** : هي التصديق الجازم بالله – تعالى – وما يجب له، و الإيمان برسله، و ما أوحى به، و يدخل في (ما أوحى به) الإقرار بـ:

١- ما أخبر به – سبحانه – من الغيوب : كأسمائه و صفاته، و الملائكة، و اليوم والآخر، و القدر .

٢- ما أمر به – سبحانه – من التوحيد و الصلاة و الزكاة و غير ذلك، وما نهى عنه من الشرك و الكذب و الحسد و غير ذلك من النواهي .

* تنبيه: العقيدة عند الإطلاق، أو عند تقييدها بالحق أو بالصحة، يُراد بها: عقيدة الطائفة المنصورة: أهل السنة و الجماعة.

خصائص العقيدة الإسلامية

اختصت العقيدة الإسلامية بعدة خصائص، منها :

١-أنها عقيدة ربانية المصدر، فهي معصومة من الخطأ و التناقض، قال تعالى : ((**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**))، وقال : ((**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**))، فدين الله العليم هو الدين الصحيح المُحْكَم؛ لأنه من عليم حكيم خبير، فكان تبيينه – سبحانه – للإيمان، و هداية العباد إليه، من أعظم المنن .

٢-أنها عقيدة أصلها ثابت، فلا تتبدل و لا تتغير، قال تعالى: ((**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**))، وقال : ((**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**)) قال السمعاني : " أجمع الْمُفَسِّرُونَ على أَن الْكَلِمَة الطّيبَة هَاهُنَا: لَا إِلَه إِلَّا الله " .

٣-أنها عقيدة أصولها مُبيَّنة بياناً يقطع دابر التحريف؛ ووجه ذلك : أن القرآن بيَّنها بأفصح بيان، قال تعالى:((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا**))، ثم جاءت السنة لتؤكد بيان هذه الأصول وتنفي التحريف والخطأ في فهمها، قال تعالى: ((**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**))، ثم بعد ذلك جاء إجماع الصحابة المؤكد لبيان هذه الأصول الإيمانية؛ لذا ذم الله من خالف إيمان رسوله وصحابته، فقال: ((**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**)) .

٤-أنها عقيدة موافقة للعقل والعلم الصحيحين؛ لأن الحق لا يتعارض مع الحق؛ لذا ذكر الله – تعالى – الأدلة العقلية لإثباتها، ووصف الله من خالفها، بالغفلة، وعدم استعمال وسائل تحصيل العلم، فقال : ((**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**)).

٥-أنها عقيدة إيمانية داعية للعمل، ففي القرآن من الوعظ والتذكير، الوعد و الوعيد، ما يدعو لزيادة الإيمان، ويحث على العمل، فهي ليست عقيدة تنظيرية مجرّدة .

٦- أنها عقيدة محفوظة بحفظ الله — تعالى -، و أهلها منصورون بنصره — سبحانه-

٧- أنها عقيدة موافقة للفطرة، مَبنيّةٌ على مقدمات ضرورية؛ لذا جاءت واضحة سهلة، يفهمها عوام الناس و خواصهم .

٨-أنها تحقق للعبد صلاح الدنيا و الآخرة، قال تعالى: ((**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**))، وقال : ((**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**)).

٩- أنها عقيدة وسطية، سالمة من التعطيل و التشبيه، ومن الغلو و الانسلاخ .

١٠- أنها عقيدة متضمنة لأمور غيبية توقيفية .

معنى علم العقيدة:

مما تقدم يمكن تعريف (علم العقيدة) بأنه : الذي يدرس مسائل الإيمان بالله وما يجب له، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وتسمى هذه أركان الإيمان.

موضوع علم العقيدة:

موضوع هذا العلم هو أركان الإيمان و ما تفرع منها، فهو يشمل عدة أبواب من أهمها ما يلي :

١-التوحيد: و هو الأصل، و سائر الأبواب الأخرى متفرعة منه، وراجعة إليه . و يشمل هذا الباب: إثبات وجود الله — تعالى — و توحيده المعرفي (توحيد ربوبيته و أسمائه و صفاته و أفعاله) والقصدي الطلبي (توحيد العبادة) ، و نواقضه، ويشمل الكلام عن صفة الكلام الإيمان بالكتب المنزلة.

٢- النبوات: و يشمل هذا الباب عدة مواضيع: كدلائل النبوة، و الكلام في عصمة الأنبياء، و التفاضل بينهم، وغير ذلك .

٣- القدر: و يشمل الكلام عن مراتبه، و خلق أفعال العباد، و القدرة و الاستطاعة، و غير ذلك .

٤- الأسماء و الأحكام: ويشمل الكلام عن الأسماء الشرعية كالإيمان والإسلام و النفاق و الكفر والشرك و الكبيرة، وأحكام من تلبس بهذه الأسماء في الدنيا و الآخرة .

٥-الغيبيات: و يشمل الكلام عن الملائكة، والآخرة و أشراطها، والبرزخ، و البعث، والحشر، و غير ذلك .

٦- الإمامة و الصحابة: و يشمل الكلام عن عدالة الصحابة، والتفضيل بينهم، و الخلافة و الإمامة وشروط انعقادها، و حقوق الراعي و الرعية، و غير ذلك .

ويدخل في ذلك الرد على الكفار، والمبتدعة، وأهل الأهواء، وسائر الملل والنحل، والمذاهب الهدامة، والفرق الضالة، والموقف منهم، إلى غير ذلك من مباحث العقيدة.

أسماء علم العقيدة :

لهذا العلم عدة أسماء حملتها مصنفات أهل العلم المشهورة في هذا العلم، ومنها :

١-العقيدة و الاعتقاد، و هو من أشهر أسمائه، وسمي بذلك؛ لأنه يبحث في ما يلزم المكلف اعتقاده، ومن الكتب الحاملة لهذا الاسم:

(عقيدة السلف وأصحاب الحديث) للصابوني.

(العقيدة الواسطية) لابن تيمية.

(الاقتصاد في الاعتقاد) لعبدالغني المقدسي .

٢- الفقه الأكبر، وهو اسم يدل على أن هذا العلم يتعلق بفهم المسائل الكبرى من الدين، فقيد (الأكبر) يخرج علم الفقه، و عُرف هذا الاصطلاح في القرن الثاني، ومن الكتب الحاملة لهذا الاسم :

(الفقه الأكبر) المنسوب لأبي حنيفة .

٣-الشريعة ، و من الكتب الحاملة لهذا الاسم:

(الشريعة) للآجري.

(الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية) و المعروف بـ (الإبانة الكبرى) لابن بطة.

٤-السنة ، و من الكتب الحاملة لهذا الاسم:

(السنة) لعبدالله بن أحمد، ولابن أبي عاصم، وللخلال .

٥- الإيمان، و هذا الاسم قد يطلق على كتاب يعم عدة مواضيع عقدية، مثل:

(أصول الإيمان) للإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب.

وقد يُطلق على كتاب يتكلم عن بعض مسائل الإيمان، مثل:

(الإيمان) لأبي عبيد القاسم بن سلّام .

٦-أصول الدين، وسمي بذلك لأن هذا العلم هو القاعدة التي يقوم عليها الدين، ومن الكتب الحاملة لهذا الاسم:

(الشرح و الإبانة على أصول السنة و الديانة) والمعروف بـ(الإبانة الصغرى) لابن بطة .

٧- التوحيد، وهذا من باب تسمية الشيء بأصله و أشرف مباحثه، ومن الكتب الحاملة لهذا الاسم:

(التوحيد) لابن خزيمة. ولابن منده، وللإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب .

مفهوم أهل السنة و الجماعة

لمّا تفرقت الفرق، ووقع الخلاف بين الأمة، اتصف أتباع النهج القويم بأوصاف فاضلة أصبحت ألقاباً مميزة لهم عن بقية الفرق المنحرفة، ومن هذه الألقاب (أهل السنة و الجماعة).

و (السنة) : هي الطريقة في اللغة، فتسمى أتباع الحق بالسنة؛ لأنهم على طريقة النبي – صلى الله عليه وسلم – و الصحابة الكرام ونهجهم، وفي الحديث : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ " .

و (الجماعة) هي ضد الفرقة، و يطلق على القوم المجتمعين، و سُمّي أهل الحق بالجماعة؛ لأنهم حققوا معنى الاجتماع الفاضل الذي أمرت به النصوص، وتركوا الفرقة و الاختلاف المذموم الذي نهت عنه النصوص.

قال تعالى : ((**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**))، و في الحديث : " ... فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية " ، وذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن اليهود افترقت على إحدى و سبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، و ستفترق

هذه الأمة على ثلاث و سبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، فقيل: من هم يا رسول الله؟ قال : " هم الجماعة " و في رواية " ما أنا عليه و أصحابي "

ومن أهم مظاهر اجتماع الفرقة الناجية، ما يلي :

١-أن اجتماعهم على ما كان عليه النبي – صلى الله عليه وسلم- و الصحابة، فلا يتَّبِعون أو ينتصرون لشخص اتباعاً أو انتصاراً مطلقا غير النبي – صلى الله عليه وسلم –، فاجتماعهم على النهج النبوي، لا تعصباً لعالم و إن جلّ قدره .

قال ابن تيمية: " انتحال قول أو طريقة للذم بها و المدح، والموالاة عليها و المعاداة غير الإيمان و القرآن، أو إمام يوالى على اتباعه مطلقاً و يعادى على عدم اتباعه مطلقاً غير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو حال أهل البدع الضالين "

٢-العمل بالإجماع، و اتباع سبيل المؤمنين، والنهي عن تركه، قال تعالى: ((**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**)).

٣-لزوم جماعة المسلمين، وعدم تفريق دولتهم، والسمع و الطاعة لأئمة المسلمين و إن ظلموا، ما لم يأمروا بمعصية، فلا يأتي المعصية ولا ينزع الطاعة في غيرها، قال – صلى الله عليه وسلم –: " ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعنّ يدا من طاعة "

(*) قد يستشكل مستشكل فيقول : كيف الجمع بين الأمر بلزوم الجماعة، وبين ما جاء من اعتزال إبراهيم لقومه و البراءة منهم، وما جاء من الأحاديث التي تدل على عودة الإسلام للغربة، و تمدح الغرباء عند فساد الأكثر و نحو ذلك ؟

الجواب : تقدم مما سبق أن المقصود بالجماعة المُرغّب بلزومها: الجماعة المجتمعة على الحق، لذا أمر الله تعالى بالاعتصام ((بحبل الله)) و نهى عن التفرق عنه، و أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الجماعة المتّبعة الناجية هي ما كان عليه و أصحابه؛ لذا أخبر تعالى

أن المشاقق هو المتولي عن إيمان النبي و الصحابة، فقال : ((**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ**))، فتبين أن الجماعة المأمور بلزومها هي جماعة النبي صلى الله عليه وسلم و الصحابة، و الافتراق المذموم هو الخروج عنها، فمن كان على ما عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – و الصحابة فهو على الحق، ولو كان جميع أهل بلده مفارق لمذهبه، و في هذا روي عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قوله : " الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك " ، وقوله : " الجماعة الكتاب والسنة، وإن كنت وحدك"

و لهذا المصطلح في كتب أهل العلم ثلاثة إطلاقات :

الأول: إطلاق خاص بأهل السنة المحضة ، و يُراد به أهلها المتبعون للمنهج النبوي الذي عليه الصحابة، فيقابل أهل البدع جميعهم، كالرافضة و الجهمية و الخوارج و المرجئة وغيرهم .

الثاني : إطلاق عام ، يُراد به ما يكون في مقابل الشيعة، فتدخل فيه الفرق المخالفة للرافضة .

يقول ابن تيمية : " فلفظ السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة ... وقد يراد به أهل الحديث و السنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من أثبت الصفات لله – تعالى – و يقول : إن القرآن غير مخلوق، و إن الله يُرى في الآخرة، و يثبت القدر، و غير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث".

الثالث: يطلق على أقرب الطوائف للسنة في البلاد التي ظهرت فيها البدعة ، يقول ابن تيمية عن الكلابية : " هم يعدون من أهل السنة و الجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة و الرافضة ونحوهم، بل هم أهل السنة و الجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها المعتزلة و الرافضة ونحوهم " .

ألقاب أهل السنة :

لأهل السنة عدة ألقاب شريفة تلقبوا بها، منها :

١- أهل السنة والجماعة .

٢- أهل الحديث، ووجه التسمي بهذا الاسم ذكره اللالكائي بقوله عن أهل الحديث: " فمن يوازيهم في شرف الذكر، و يباهيهم في ساحة الفخر و علو الاسم؟! ؛ إذ اسمهم مأخوذ من معاني الكتاب والسنة، يشتمل عليهما، لتحققهم بهما، أو لاختصاصهم بأخذهما، فهم مترددون في انتسابهم للحديث بين (١) ما ذكر الله – سبحانه وتعالى– في كتابه؛ فقال تعالى ذكره : ((الله نزّل أحسن الحديث)) فهو القرآن، فهم حملة القرآن وأهله وقراؤه وحفظته، وبين (٢) أن ينتموا إلى حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهم نقلته وحملته، فلا شك أنهم يستحقون هذا الاسم لوجود المعنيين فيهم " انتهى .

٣- أهل الأثر ، و سُموا بالأثرية لاقتفائهم أثر النبي – صلى الله عليه وسلم – و الصحابة، والاهتمام بما أُثر عنهم .

٤-السلفية ، نسبة للسلف، فالسلف الصالح كانوا على طريقة أهل السنة، ومن جاء بعدهم و اقتفى أثرهم سمي سلفياً لاتباعهم .

٥- الفرقة الناجية ، وهو مأخوذ من حديث الافتراق و فيه : " ... تفترق أمتي على ثلاث و سبعين ملة كلهم في النار، إلا ملة واحدة، قالوا : ومن هي يا رسول الله؟ ، قال : ما أنا عليه و أصحابي " .

٦- الطائفة المنصورة ، وهو مأخوذ من حديث : " لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله و هم كذلك " ، قال أحمد : " إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم " .

- وإذا علمت مفهوم أهل السنة، فاعلم أنه لا يجوز إخراج أحد منهم بلا حق، فهذا ظلم، ومن صفات أهل السنة اتباع الحق ورحمة الخلق، وعدم الظلم، و ليس كل مخالفة تُخرج صاحبها من أهل السنة، فالمخالفات على مراتب.

يقول الإمام أحمد: " إخراج الناس من السنة شديد "، ويقول: " أحبوا أهل السنة على ما كان منهم " .

مصادر التلقي عند أهل السنة و الجماعة

يتلقى أهل السنة والجماعة العقيدة من الوحيين (الكتاب و السنة)، و الإجماع يرجع لهما، فلا يخرج عنهما، لأنهم لا يجمعون إلا على ما في الكتاب و السنة .

و لا يُظن أن الكتاب و السنة أخبار مجردة، بل جاءا بأوضح الآيات و البراهين العقلية و الفطرية، فالعقل و الفطرة الصحيحة موافقة لما في الكتاب و السنة؛ لذا قال تعالى : ((الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ))، قال الإمام المجدد مفسراً لها : " أتباع النقل هم أهل العقل لا غيرهم" .

و عليه فأهل السنة يتلقون من الكتاب و السنة، و يستدلون بنصوصهما و بما جاءا به من الأدلة الفطرية والعقلية، وما أجمعوا عليه .

أما دلالة القرآن على الحق فظاهرة، فهو كتاب هدى ورشاد و فصل ونور .

و من أقر بدلالة القرآن فعليه الإقرار بالسنة، لأن القرآن قد دل على وجوب اتباع السنة، فقال تعالى : ((وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا))، و أخبر سبحانه أن فهم القرآن لا يكون بعيدا عن السنة، بل بها، فقال : ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)) فحفظ السنة من حفظ القرآن؛ إذ حفظ البيان هو المقصود من حفظ الألفاظ، ولو ضاع البيان، لكان طعنا في حفظ القرآن .

و أما الإجماع فلا يخرج عن الكتاب و السنة، و قد دلا على حجيته، فقال تعالى : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس)) ، قال ابن سعدي : " وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة، حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: {وَسَطًا} فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: {ولتكونوا شهداء على الناس} يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك "

و أخبر صلى الله عليه وسلم أن في الأمة طائفة منصورة على الحق، فلو أجمعت الأمة على شيء، فإما أن يكون هذا الشيء حقاً أو باطلاً، و يمتنع أن يكون باطلاً؛ لأنه لو اجتمعت الأمة كلها على الباطل لم تبق هناك طائفة على الحق!، و الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر ببقائها .

و أما الأدلة العقلية فقد جاء الوحي بأشرفها، و من ذلك :

١-القياس بين صفات الخالق بطريق المساواة، أو الأولوية، كقياس أفعال الرب الموعودة على أفعاله المشهودة، و من ذلك : قياس البعث على النشأة الأولى في قوله تعالى : ((وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)) .

٢- الاستدلال بصفات المخلوق على صفات الخالق بطريق الأولوية، وهو ما يسمونه بقياس الأولى، وهو الوارد في قوله تعالى : ((و لله المثل الأعلى))، فكل كمال لا نقص في الاتصاف به من وجه من الوجوه فالله أولى بالاتصاف به، وكل نقص الباري أولى بالتنزه عنه .

ومن أمثلة المثل الأعلى قوله تعالى : ((ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) فدلت الآية على أن من كمال الإنسان أن يتفرد بملك بماله عن مملوكه فلا يشاركه مملوكه فيه مشاركة امتلاك، بل أن يكون مالكاً لماله دون مملوكه، وهو

يمن به عليه باختياره، لا قهرا، فإذا كان هذا ثابتا للإنسان، فالله أولى أن يتفرد بالملك و التدبير، فيوُحد بالعبادة، و ينفى الشرك ، فهو الواحد لا شريك له .

قال ابن زيد في قوله: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) قال: هل تجد أحدا يجعل عبده هكذا في ماله، فكيف تعمد أنت وأنت تشهد أنهم عبيدي وخلقي، وتجعل لهم نصيبا في عبادتي، كيف يكون هذا؟ قال: وهذا مثل ضربه الله لهم، وقرأ: (كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)"

٣- الاستدلال بالسبر و التقسيم، وهو يقوم على حصر الاحتمالات التي لابد من ثبوت أحدها، ثم يبطلها جميعاً إلا واحدا يكون هو الصواب، و هو المذكور في قوله تعالى : ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)) فالاستفهام هنا إنكاري، أي: يستحيل أن يكونوا خُلقوا بلا سبب، و يستحيل أنهم كانوا عدما وخلقوا أنفسهم!!، فتعين أن الله خلقهم، و لم يذكر سبحانه النتيجة لظهورها ووضوحها .

و الأدلة العقلية الواردة في الكتاب و السنة، و التي استدل بها السلف أكثر من هذه الأنواع، ولكن الغرض هنا هو التمثيل لا الحصر .

واعلم – وفقك الله – أن العقل و إن دل على عامة مسائل أصول الدين الكبار، إلا أنه ليس دليلاً على كل المطالب العقدية، بل له حد إن تجاوزه ضل، كما أن العقليات ليست على مرتبة واحدة، بل تتفاوت كتفاوت السمعية بل أشد، فكما أن في السمعيات اليقيني و الظني، و الصحيح والحسن والضعيف، فكذا العقليات فيها اليقيني و الظني، والصحيح والضعيف .

و أما دلالة الفطرة، فمذكورة في الوحي، قال تعالى : ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))، و أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن المولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، و ذلك أن المراد بالفطرة : قوة تقبل الحق و ترد الباطل عند عرضهما، و لكنها قد

تفسد إن و جدت موانع –كالتربية، والشهوة ، والشبهة – ، فيرسل الله الرسل بالآيات المذكرة بها، قال تعالى : ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)))، فالفطرة كالعين إذا أتاها الضوء أبصرت، و إن حال دونها و دون الضوء مانع لم تبصر، فيحتاج إلى إزاحة ذلك المانع .

منهج الاستدلال عند أهل السنة و الجماعة

يمكن إجماله فيما يلي :

١– الإيمان بجميع النصوص ، و الأخذ بها جيمعاً دون الاقتصار على بعضها دون الآخر، بل ينظرون إليها نظرة شمولية، وهم بذلك فارقوا طريقة أهل الضلال المذكورة في قوله تعالى : ((أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)).

٢– اعتقاد اشتمال الوحيين على العقيدة الصحيحة مسائلها و دلائلها، فما من خير إلا جاء به الوحي .

٣– أن العقيدة لا يدخلها النسخ؛ لأن النسخ في الأوامر، لا في الإخبار عن الله تعالى ورسله ونحو ذلك، إذ النسخ في الأخبار هو الكذب، و الوحي منزه عن الكذب .

٤– رد التنازع للكتاب و السنة، قال تعالى : ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)) .

٥– الأخذ بظواهر النصوص؛ لأن الله خاطب العرب بما يعرفونه من لسانهم، فبين الله – سبحانه – ورسوله – صلى الله عليه وسلم– أصول الدين لجميع الناس، من ذكر وأنثى، وعالم وجاهل، و صغير وكبير، و حضري وبدوي، بهذه الألفاظ، ولم يُذكر ما يصرفها عن

ظاهرها، فالناس سيفهمونها على ظاهرها، ولو كان ظاهرها فاسداً – كما يقول المبتدعة – لكان هذا قدحا في البيان و التبليغ، و فتحاً لأبواب التكلم على الله بلا علم، بل يلزم من هذا أن تكون هذه الألفاظ ظاهرها يدعو إلى باطل! ، و لها تأويل غامض هو الحق، فبدلاً من أن تكون هداية وبيانا، أصبحت تضليلا وتلبيسا – والعياذ بالله – ، وكلام الله ورسوله يتنزه عن هذا، فلزم الأخذ بالظاهر .

٦- الإيمان بالمتشابه و رَدِه للمحكم، قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَاب))، فأهل الزيغ و الهوى يستدلون بالمتشابه دون المحكم لأمرين :

١- ابتغاء الفتنة؛ بإضلال أتباعهم وإيهامهم أنهم يحتجون بالقرآن .

٢- ابتغاء تأويله، بتفسير ما يحتمل عدة معاني على ما يوافق هواهم، دون إعمال الطريقة الصحيحة في الفهم، قال ابن كثير : " إنما يأخذون منه بالمتشابه، الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، و ينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، أما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دامغ لهم وحجة عليهم " .

٧- تفسير القرآن بالقرآن والسنة، و فهم لسان العرب لفهم الخطاب .

٨- اعتماد فهم السلف، وذلك لأن القرآن تنزل عليهم، و هم أعلم بلغته، وبتفسيره، والرسول – صلى الله عليه وسلم – كان بينهم، فهموا خطابه ومراده وخالطوه مخالطة تجعلهم أعلم به من غيره، فكان يرشدهم و يصحح ما أخطأوا فيه، و لا يجتمعون على ضلالة، مع كمال علمهم وتقاهم؛ لذا جاءت النصوص في الاقتداء بهم، منها قوله تعالى : ((فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ))، و حديث العرباض في الاقتداء

بالخلفاء الراشدين، و أدلة الإجماع تدل على فهم السلف، فهم أولى من يدخل في عصمة الأمة جميعاً عن الضلالة.

٩- الأخذ بمقبول الآثار وترك مردودها، فلا يؤخذ الحديث الضعيف.

١٠- التسليم بما جاء في النصوص، و ذلك لأن التسليم للحق موقف عقلي فطري، لا جزافي، فبعد العلم بصدق الناقل و علم المتكلم وصدقه و نفي الخطأ و الكذب عنه، يكون التسليم لازماً، وقد قال الطحاوي : " لا تثبت قد الإسلام إلا على ظهر التسليم و الاستسلام، فمن رام علم ما حُظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان "

و متى ما ورد الخبر أو الأمر في الكتاب و السنة وجب التسليم به بلا اشتراط، و العقل الصحيح لا يعارض النقل الصحيح، لكن الناس يتفاوتون في إدراك المعقولات و الحِكَم، و لا يمكن أن يحيطوا بكل شيء علماً، فلا يصح أن يشترطوا إدراك حقيقة كل خبر، أو حكمة كل أمر، فإن هذا ليس إسلاماً، بل هو من جنس قول الكافرين : ((وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ))، و الشرع لا يأتي بمحالات العقول، ولكن قد يأتي بما تحتار منه لعجزها، فأهل الضلال قد يعارضون الشرع بزعم مخالفة العقل، كما قال تعالى عنهم : ((فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)).

١١- الأخذ بالإجماع المنضبط الصحيح، فكثير من الإجماعات تُحكى مع عدم ثبوتها، بل بعضها تُحكى و هي مخالفة لدلالة الوحي العقل، بل و لإجماع السلف!، كالإجماعات التي حكاها بعض المتكلمين على نفي الجهة (يقصدون العلو) ونحو ذلك .

١٢- الاستدلال بالمعقولات الصحيحة، و بالفطرة السليمة، فلا يأخذون المعقولات الباطلة التي دخل فيها القياس الفاسد، أو دخلت فيها مادة من الفلسفة وغير ذلك من الباطل، ولا يأخذون بالفطرة الفاسدة المائلة عن الجادة.

١٣- الأخذ بخبر الآحاد في الاعتقاد، و يمكن إجمال الكلام في هذا فيما يلي:

أولا : المقصود بخبر الواحد : هو كل خبر لم يصل لدرجة التواتر، فيدخل خبر الراويين والثلاثة و نحوهم .

ثانياً : أدلة الأخذ بخبر الواحد، منها :

أ- قال تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا))، فمفهوم المخالفة أن العدل يؤخذ خبره، قال ابن حجر : " وجه الدلالة منه يؤخذ من مفهومي الشرط و الصفة، فإنهما يقتضيان قبول خبر الواحد " .

ب- أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل الرسل إلى الروم وكسرى و اليمن وعمان والقبط آحاداً، وكان أول ما يدعون إليه التوحيد، ولو أن خبر الواحد لا تقوم به حجة، لكان هذا طعنا في بلاغ النبي – صلى الله عليه وسلم – و عذراً لقيصر و كسرى ومن رفض الدعوة، وهذا باطل، فتبين أن خبر الواحد تقوم به الحجة، قال ابن حجر : " وهو استدلال قوي لثبوت خبر الواحد من فعله – صلى الله عليه وسلم –؛ لأن خبر الواحد لو لم يكف قبوله ما كان في إرساله معنى " .

ج - الإجماع على قبوله في العقائد و غيرها، حكاه ابن عبد البر وغيره .

د - أن العمل على ذلك، فخبر الواحد يصدقه العاقل إذا توفرت شروطه، ويجد نفسه مضطره لتصديق مقتضاه.

ثالثا: مذهب المخالفين :

ذهب المتكلمون إلى عدم حجية خبر الواحد في كثير من العقائد، وهم في ذلك على درجات، ولكنهم يردونه فيما هو عندهم من القطعيات المتوقف ثبوت النقل عليها، و قد يقبلونه في أبواب السمعيات (الغيبيات) .

و حجتهم: أن هذه العقائد لا يُقبل فيها إلا اليقين، وخبر الواحد ليس بيقين، فلا يُقبل فيها، و إنما يُقبل في غيرها .

الرد عليهم :

أ- التفريق بين الأحكام الاعتقادية و العملية، والقول بأن خبر الواحد يقبل في العملية دون الاعتقادية، تفريق لا دليل عليه، فكلها أحكام دينية، و إنكار السلف في كتب العقيدة المسندة لهذا التفريق كثير في كلامهم، ولم يعرف المحدثون أن آحادية الخبر في أبواب العقائد علة في ضعفه !، بل احتجوا بتلك الأحاديث ورووها .

ب- عدم التسليم بأن خبر الواحد لا يفيد اليقين، بل هو مفيد له إذا احتف بالقرائن، كما ذهب إلى ذلك جمع من المحققين من أهل الحديث، و من القرائن ما يعود إلى صفة الراوي أو المروي أو تلقي الأمة له بالقبول، وأخبار العقائد لا تخلو من هذه القرائن .

ج- على التسليم و القول بأن خبر الواحد لا يفيد اليقين، فهو يفيد الظن الراجح، ونحن متعبدون بغلبة الظن، فكما يؤخذ في الأحكام فهو يؤخذ في العقائد، فكل ذلك من الدين، ولذا كان عمل السلف و إجماعهم على الأخذ به –كما تقدم –، فالشرع دل على أخذ العلم من الأفراد و الجماعات كما تقدم .

د- يلزم من رد خبر الآحاد لوازم فاسدة، كالطعن في تبليغ النبي – صلى الله عليه وسلم – و الطعن في عمل السلف، و التفريق بين المتماثلات، وغير ذلك من اللوازم الباطلة .

١٤– درء التعارض بين الأدلة الصحيحة، فالحق لا يتعارض مع بعضه؛ ولذا لـمّا كان كلام الله كله حق، قال تعالى: ((وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا))، و لـمّا كانت كتب الله غير المحرفة التي جاءت بها الرسل حق، صدقت بعضها؛ لأن الحق لا يتعارض، قال تعالى : ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)) .

فالقرآن و السنة الصحيحة و الإجماع الصحيح و العقل الصحيح والفطرة السليمة، لا تتناقض في نفسها، و لا تتعارض مع بعضها .

و إن وقع التعارض فهو في ذهن الناظر لا في نفس الأمر، وهذا بسبب خطأ ارتكبه، فإما أن يكون ظن أن الحديث صحيح هو ضعيف، أو فهم النص فهما خاطئاً، أو كان دليله العقلي خاطئاً، أو فسدت فطرته ونحو ذلك .

دعوى تعارض العقل و النقل

لما رأى المتكلمون أن ظواهر نصوص الصفات ونحوها تخالف قواعدهم العقلية، قدموا قواعدهم و أولوا تلك الظواهر أو فوضوها، فعطلوها من معانيها، و زعموا بأن قواعدهم قطعية بخلاف تلك الظواهر الظنية، فلزم تقديم القطعي .

و كانت الصياغة النهائية لحجتهم على يد الرازي، فاستدل بالسبر و التقسيم، فحصر الاحتمالات التي لا بد أن يثبت واحداً منها، وأبطلها إلا واحدة، فانتهى إلى أن (تقديم العقل على الظاهر هو الصواب)

وحاصل حجته كالآتي :

العقل إذا دل على شيء ، ثم وجدنا نقلاً ظاهره يدل على أمر يخالف ما دل عليه العقل، فالأمر لا يخلو من أحد أربعة أمور :

١- أن نأخذ بما دل عليه العقل و النقل (و هذا محال لأنهما متناقضان و لا يمكن الأخذ بالنقيضين) .

٢- أن نترك العقل و النقل (و هذا أيضا لا يصح لأنا بذلك نترك المعرفة، و نكذب مصادرها)

٣- أن نأخذ بظاهر النقل (وهذا – عند الرازي – محال، لأن العقل أصل النقل، فلولا العقل ما عرفنا صحة النقل)

٤- نأخذ بما دل عليه العقل (وهو الصحيح عند الرازي لأنه الاحتمال المتبقي، و ما قبله باطل)

الجواب على الشبهة :

أولا : كلامه مبني على ثلاثة أمور :

١- ثبوت التعارض

٢- أن الأقسام هي الأربعة التي ذكرها فقط .

٣- أن الأقسام الثلاثة الأولى باطلة، و الرابع هو الصحيح .

وهذه الأمور كلها خطأ، وبيان ذلك أن يقال : الدليلان (العقلي و السمعي) لا يخلوان من ثلاثة أحوال:

١- أن يكونا قطعيين، فلا يمكن أن يتعارضا أصلاً، باتفاق العقلاء، فلا يقال أن هناك تعارضاً.

٢- أن يكون أحدهما قطعي والآخر ظني، فنقدم القطعي منهما سواء كان نقلياً أو عقليا.

٣- أن يكونا ظنيين، فنقوم بالترجيح .

فتبين أن القول بتقديم العقل على النقل مطلقاً، قول خاطئ، بل يقدم القطعي على الظني سواء كان نقليا أو عقليا، و أما القطعيان فلا يتعارضان أصلا، و أما الظنيان فيُرجح بينهما .

ثانيا: أن القول بأن (العقل أصل النقل) لا يعني أنه أصل في ثبوته في نفس الأمر، فالنقل موجود سواء عقلناه أم لا، ولكن المراد بقولنا (العقل أصل النقل) أن العقل يُعلمنا صحة النقل، لكن الذي ينبغي التنبه له أن الدليل العقلي ليس شيئا واحداً، بل المعقولات كثيرة منها الصحيح ومنها الفاسد، والذي أعلمنا بصحة النقل بعض المعقولات الصحيحة،

وليس كل المعقولات، و هذه المعقولات التي أعلمتنا بصحة النقل لا تتعارض معه، بل التي تعارضه معقولات أخرى ليست أصلاً له، ولم تعلمنا بصحته، فلا يلزم تقديمها .

ثالثاً : قلب الدليل، فيقال : القدح في النقل قدح في دلالة العقل، فلو قدرنا تعارضهما — جدلا — لزم تقديم النقل.

ووجه ذلك : أن الدليل نعرفه بصحة مدلوله، فنحن نعرف أن محمداً صادقاً لأن وجدناه لا يُخبر إلا بصدق، وعلمنا أن علّانا كاذبا لأن وجدنا أخباره كاذبة، وعلمنا بأن هذا الدواء نافع لأنا وجدنا نتائجه صحيحه، فإن كانت نتائجه فاسدة لم يكن دواءً ، كذلك الدليل .

فلو قيل : العقل أصل النقل وهو دلنا على صحة النقل، ثم قيل: النقل باطل، لأصبح العقل دالاً على الباطل ! ، و هذا يقدح في دلالة العقل، و كيف يكون العقل مصدقاً للنقل و مكذباً له في نفس الأمر !! ، هذا باطل .

والعقل زكى جميع ماجاء به الشرع من نقل ، بخلاف النقل لم يزكي كل ما جاء به العقل، فلزم تقديم النقل .

مثال تقريبي : رجل ذهب للمسجد النبوي، ثم سأل أحد العامة عن مكان شيخ مفتي، فدله العامي عليه، فذهب الرجل وسأل الشيخ عن حكم زكاة الذهب، فأفتاه الشيخ .

هل يحق لذلك العامي أن يعترض على فتوى الشيخ، ويفتي الرجل من عنده، ويقول : أنا دللتك على المفتي و أنا أصل علمك به، فيلزمك أن تقدم فتواي على فتواه ؟!!، بالطبع لا، فكذلك العقل يدل على صحة النقل، و لا يعارض حكمه .

مثال آخر : رجل قال : ما في هذه الورقة صحيح قطعا، ثم تعارض كلامه مع ما فيها ، فمعارضته لما في الورقة تُسقط الثقة فيه، كما أن إسقاط النقل يسقط الثقة في دلالة العقل .

رابعاً : هذا القول الذي ذكره الرازي يلزم منه لوازم فاسدة، كإضعاف الثقة بدلالة النصوص، وفتح باب التحريف على مصراعيه، و القول بأن الوحي لم يهدي الناس بل لبّس عليهم ، و فساد اللازم يدل على فساد المدلول .

مصادر التلقي عند المخالفين :

هناك مصدر تلقي باطلة عند المخالفين، أفسدت عليهم عقيدتهم، منها :

١- الأدلة العقلية الفاسدة، كدليل الأعراض عند المتكلمين الذي أدى بهم إلى نفي صفات الله تعالى .

٢- الكشف والإلهام و الرؤى و الذوق عند الصوفية، فهذه ما كان صحيحا منها لم يخالف الكتاب و السنة، فالدليل هو الوحي، وما كان منها باطلا من إلقاء الشياطين والهلوسة فليست بحجة، وكلٌ يستطيع أن يدعيها، فكيف يمكن معرفة صدقه؟!، وعلى فرض صدقه كيف يمكن معرفة أنها حق وليست من إلقاء الشياطين أو الهلوسة و التخييلات ؟! ، لا يمكن ذلك إلا بعرضها على الكتاب والسنة، فتبين أن الحجة تكون بالوحي لا بها .

٣- الفلسفات القديمة و الحديثة، فبعض المخالفين ينتهج منهجها، أو يكون في طريقته مادة منها، لذا ظهرت الفلاسفة، و الباطنية، وظهرت نظريات الفيض و غيرها من المحدثات التي أفسدت أديان كثير من الخلق .

٤- الإسرائيليات، و لا يصح أن يؤخذ بشيء منها إن لم يوافق الوحي، فإن عارضه رُد، وإن لم يعارضه أو يوافقه فلا تُصدّق هذه الإسرائيليات ولا تُكذب، لاحتمال أن تكون حقا أو باطلا .

٥- الأحاديث الموضوعة، فبعض من ليست له دراية بالحديث يأخذ بها، أو يصححها بما ليس بمصحح .

٦- الأخذ بآراء الرجال، و آراء الرجال قد تكون مصدرا عند المخالفين من جهتين :

من جهة : المجتهد و المقلد : كأخذ الروافض بما ينسبونه للأئمة، وهذا باطل من جهة عصمة الأئمة، ومن جهة صحة ما نسبوه إلى الأئمة، وكالباطنية الذين يأخذون من دعاتهم، و غلاة الصوفية الذين يأخذون من أقطابهم .

و قد يكون التعصب من جهة التقليد فقط : كالتعصب للعلماء المشهورين في علم من علوم الشريعة كالحديث و الفقه وغيرها، فيقول هو أعلم، ويقلده في كل أمور اعتقاده، دون النظر في الأدلة، و تقليد العاجز عن الاجتهاد إن جاز في الفقه فإنه لا يصح في أصول العقيدة، أي ما يتعلق بعبادة الله و توحيده، لأن أدلة ذلك في القرآن والسنة وكذا العقل والفطرة ظاهرة بيّنه، وإن جاز تقليده في غيرها من مباحث العقيدة كالكلام عن أشراط الساعة وغيرها .

و إذا نظرت إلى هذه المصادر، وقارنتها بمصادر تلقي أهل السنة، علمت ما بين الفريقين من تفاوت في نقاوة المصدر وصحته، وليس الشارب من المعين الصافي، كالشارب من طينة الضلال .

أدلة وجود الله تعالى

اعلم – وفقك الله – أن هناك أمورا ضرورية، إنكارها يعد جحودا و مكابرة أو جنونا، و هذه المقدمات الضرورية هي أصل الاستدلال، ولا يمكن الاستدلال لها، لأن الاستدلال لا بد أن ينتهي إليها، وإلا لو استدللنا على كل دليل لم يكن هناك نهاية نقف على نتيجتها .

مثال: العلم بأن مبنى الجامعة الإسلامية قد بناه بُناة عن قصد يعلمون البناء، هذا معلوم بالضرورة، يجد الإنسان أنه يعلمه دون استدلال، حتى لو أنه وُلِد بعد بناء الجامعة ولم يرَ من بناها، فلو قيل له ما الدليل على أن هناك من بناها، لذكر أمورا تُذكّر بضرورية ذلك، كأن يقول : لكل حادث محدث ونحو ذلك، فإن أنكر أحدهم أن تكون مبنية لأنه لم يرَ من بناها، و أنكر أن يكون لكل حادث محدث ، عُدَّ مكابراً أو مجنوناً .

ووجود الله – تعالى – معلوم بالضرورة العقلية و الفطرية ، لا بالنظر العقلي، لكن قد تفسد فطرة المرء، فيحتاج إلى النظر في المقدمات الضرورية لإثبات وجود الله .

إذا تقرر ما تقدم عُلم أن دلائل وجود الله في غاية الوضوح، فهي دلائل ضرورية تحصل معها المعرفة مباشرة بلا واسطة.

وأدلة وجود الله تعالى كثيرة لا تنحصر، بل في كل شيء دليل عليه – سبحانه –، و من هذه الأدلة :

أولا : الفطرة، فلا زالت فطر المخلوقات تقر بوجوده سبحانه، لذا إنكار وجوده حدث طارئ في الأزمان المتأخرة، نشأ من فساد الفطرة، و استيلاء الشهوات و الشبهات .

فالفطر تقر بأن لكل حادث محدِث، و أن كل تصميم له مُصمِم ، و أن للكون غاية، أن هناك عواقب، و غير ذلك من الأمور الفطرية التي يجد المرء نفسه مضطرا لقبولها، قال تعالى: ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ))، فوجود الله – تعالى – أظهر للفطر من وجود النهار، بل النهار و جميع المخلوقات لا يمكن تفسير وجودها دون الإقرار بوجود الله تعالى .

ثانياً : العقل

والعقل يدل على وجود الله تعالى من أوجه كثيرة، منها :

١- دليل الخلق و الإيجاد، و يقوم هذا الدليل على أن كل شيء حادث كان عدماً ثم أصبح موجوداً فإنه لابد أن يكون له سبب لإيجاده، لأن العدم لا شيء، فلو لم يكن هناك ما يخرجه إلى الوجود لبقي عدما، وهذا أمر معلوم بالضرورة .قال تعالى : ((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ)) وهذا استفهام إنكار، أي : يستحيل أنهم كانوا عدما، نقلهم العدم إلى وجود !!! ، و يستحيل أنهم كانوا عدما فأوجدوا أنفسهم !!! ، فتعيّن أن الله خلقهم .

و اعلم أنه يكفي لإقامة هذا الدليل الاستدلال بحادث واحد، و حدوث الأشياء معلوم بالضرورة، وليس نظرياً، لذا لـمّا حاول المتكلمون أن يقيموا هذا الدليل، أرادوا أن يستدلوا على حدوث العالم بالنظر، فجاءوا بدليل الأعراض، فتخبطوا و أداهم إلى نفي كثير من الصفات، وتركوا الأمر البيّن إلى الغامض، وهذا يحدث لمن دخل في هذا الباب بغير علم و دراية للأدلة التي جاء بها الوحي، كما جاء في قصة ضلال الجهم أنه أسس مذهبه الباطل بعد مناظرته السُمنيّة في إثبات الوجود الإلهي .

فالدليل يكفي أن تقول فيه مثلا: الإنسان مخلوق، وكل مخلوق يحتاج إلى خالق أول لم يُسبق بعدم وهو الله .

و في السابق كان الملاحدة يقولون العالم ليس حادثا بل هو أزلي، ويقولون بقدم المادة، و أما الآن فقد ذهب هذا القول، و أصبحوا يقرون بحدوثه، لثبوت ذلك عندهم بعدة أدلة علمية (كقانون الديناميك الثاني) و (الإنفجار العظيم) .

-و اعلم أنه لولا الإقرار بالله الأول الذي لم يسبقه عدم لم تُوجد الحوادث، وذلك أن كل حادث له سبب كما تقدم، فإذا كان سبب الحادث حادثا، احتاج إلى سبب آخر، فإن كان هذا السبب الآخر حادثاً احتاج إلى آخر، وهكذا، فلا بد أن تنقطع الحاجة، وتنتهي الأسباب إلى موجود أزلي أول لم يُسبق بعدم وهو الله – سبحانه – .

مثال توضيحي : إذا قلنا شرط وجود (أ) أن يوجده (ب) وشرط وجود (ب) أن يوجده (ج)و شرط وجود (ج) أن يوجده (د) وهكذا إلى ما لا نهاية ! ، هل سيوجد شيء ؟! بالطبع لا هذا تسلسل في العلل وهو محال .

مثال آخر : لو قلنا : شرط وجود (أ) أن يوجده (ب) و شرط وجود (ب) أن يوجده (ج) وشرط وجود (ج) أن يوجده (أ) و شرط وجود (أ) أن يوجده (ب) وهكذا

ضللنا ندور، هل سيوجد شيء؟!! ، بالطبع لا، لأنا سنضل ندور ، وهذا يمسى دور سبقي وهو ممتنع . إذا لا بد أن تنتهي الموجودات إلى موجود ليس له شرط لوجوده وإلا لم توجد ، وهو الأول سبحانه .

٢- دليل الإحكام و الإتقان و العناية

و هذا الدليل يقوم على ما نشهده في الكون من دقة عجيبة و من عناية بديعة، فالمخلوقات تُخلق خلقاً بديعا، ثم يُعتنى بها بعد الخلق، فترى من الانتظام ودقة الصنع ما يسحر الألباب، وهذا يدل على خالق حكيم عليم، قال تعالى ذاكرا آياته : ((و في الأرض آيات للموقنين (٢٠) و في أنفسكم أفلا تبصرون)) .

إن العقل ليرفض أن تكون السيارة أو الطائرة أو المبنى المصمم، أو الجوال أو البيت المؤثث أو المكتبة المرتبة جاءت صدفة، وتنظمت صدفة ، لذا كل إنسان يقر ضرورة بلا نظر بأن هناك من صنعها ورتبها ، فكيف يكون هذا الإنسان و الكون الساحر للألباب صدفة بلا خالق ؟!!

فإن قال الملحد : أنا رأيت من صنع الجوال والمبنى ، ولم أر الخالق .

أجيب : هل رأيت كل من صنع الجوالات؟ وهل رأيت كل البناة الذين بنوا المباني ؟ بالطبع لا، فهناك مباني وجدت قبل أن يولد، بل هو لم يُحط بجميع المباني، فهل تقول أن المباني التي بُنيت ولم ترها –كمبنى الجامعة الإسلامية مثلا- من غير سبب ومن غير بُناة ؟ إن قال نعم أصبح مكابراً أو مجنونا ، و إن قال : لا ، ولكني رأيت من يصنع مثله فحكمت بأنه

مصنوع، يُقال له : أنت استعملت قياس التمثيل، فحكمت بالمثل الذي شاهدته على الغائب، فلمّا رأيت هذا المبنى، حكمت أن المباني التي مثله (ومن باب أولى) التي أكبر منه لها سبب ، فيلزمك أن تقبل هذا القياس في غير المباني، فتحكم بما هو أعظم تصميما من المباني، وما هو أبهر منها ، بأن له سببا، وإلا كنت متناقضاً، فلا يعقل مثلا أن يأتي أحد ويقول : الجوالات مصنوعة لأني رأيت بعض من صنعها، ثم ينكر صنع الكمبيوتر و التلفاز و الطائرة إذا لم يرَ من صنعهما ، لأن صنع هذه من باب أولى ، فكيف بالعالم أجمع .

وهذا الجواب والنقاش السابق من باب التنزل مع هذا الملحد، و إلا فالعلم بصنع هذه الأمور ضرورة فطرية لا تحتاج إلى مشاهدة ولا قياس أصلا، فالملحد أعظم فساداً ممن أنكر وجود بناة للمباني، ووجود صانع للسيارة وللجوال .

ثالثاً : الحس، ككلام الله – تعالى – لبعض الرسل –كمحمد وموسى – عليها الصلاة والسلام – ، و كإجابة الله للداعين ، و المعجزات ونحو ذلك .

وهذا الدليل يكون مباشراً للبعض، منقولا نقلاً يوجب تصديقه للبعض الآخر، ككلام الله – تعالى – لموسى – عليه السلام – فهو مباشر بالنسبة له، منقول بالنسبة لغيره .

رابعاً : النقل ، وهذا ظاهر من حيث نصوص الشريعة، لكن هناك نقل أممي نقلته البشرية من عهد آدم - عليه السلام – فكان إجماعا بشرياً على وجود الله لازم البشرية حتى ظهرت شرذمة خالفوا ذلك، وهذا يشهد له علم التاريخ و الاجتماع و غيرها من العلوم المعنية بذلك، وقد أقر كثير من الملاحدة بأصلية الإقرار بوجود الله و حدوث الإلحاد .

تعريف الإلحاد

لغة : هو الميل عن الأصل .

اصطلاحاً: يختلف باختلاف السياقات و العلوم، ولكن يمكن القول أنه : " الميل عن الحق الاعتقادي أو العملي"

فقد يُطلق في باب الصفات على كل من خالف الحق فيها، وقد يطلقه بعض أهل العلم على من ينفي النبوات و إن كان يقر بالله ، أو على من ينكر الميعاد ونحوه .

لكن في هذه الأزمان يغلب إطلاقه على : ((مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه))

و قد يعمم بعضهم مفهومه فيشمل من لا يثبت وجود الله ولا ينكره، وهم المسمون بـ (اللا أدرية) ، وقد يعممه بعضهم أيضا على (الربوبية) الذين يقرون بوجود الله وينكرون الأديان والرسالات ويحاربونها، فهو ملحد بالنتيجة لا بالمصطلح.

أبرز صور و تيارات الإلحاد المعاصرة

يمكن القول أن من لم يثبت وجود الله في هذا الزمن على أقسام، كالآتي :

١- الملحد النافي لوجود الله، الذي يدعي أنه يملك دليلاً على عدم وجوده، ويزعم أن العلم أو الفلسفة أثبتت ذلك، وهذا الذي ينصرف إليه مصطلح الإلحاد بالمعنى الفلسفي .

٢- الملحد السلبي ، اللا أدري ، وهو الذي لا يثبت ولا ينفي وجود الله، وهم على مراتب :

أ- منهم من يقول : لا أدري هل يمكن أن نعرف بأن هناك إله أم لا

ب- منهم من يقول: لايمكن أن نتوصل إلى معرفة وجود الله و لا يمكن أن نتوصل إلى نفيه، فالطريق للعلم مسدودة

مناقشة أبرز دعاوي وشبهات الإلحاد المعاصر

الشبهة الأولى : أن الشر موجود في العالم وهذا يدل على عدم وجود الله – تعالى – .

الجواب : من عدة أوجه :

أولا : الاستدلال بوجود الشر على نفي وجود الله خطأ استدلالي، فهو قفزة منطقية واحتجاج خائب، لأن هذه الشبهة – إن صحت ودون صحتها خرط القتاد – تشكك في صفات الخالق لا في وجوده، لذا أثرت هذه الشبهة على المعتزلة فنفوا خلق أفعال العباد تحت مفهوم (العدل)، وقابلهم الجبرية من الأشعرية الذين قالوا الظلم هو المحال لذاته، والحكمة هي موافقة الإرادة، فيجوز عندهم عقلا (لا شرعا) تعذيب الطائع و إدخال المشرك الجنة !!! .

أما الاستدلال بوجود الشر على نفي وجود الله ، فلا يصح ، فلا يقول الملحد : الشر موجود إذا الله غير موجود !!، فما التلازم بينهما ؟! ، كل ما يستطيع أن يعترض به هو ما يتعلق في صفات الله تعالى .

ثانياً : الملحد لا يصح أن يحتج بوجود الشر لأنه سينقض مذهبه، فهو يقر بأن الإنسان كائن كيميائي جاء بالصدفة، فهو كائن عبثي لا أكثر ، فكيف للمحلد وفق هذا التصور أن يقول : هذا خير و هذا شر ؟ كيف عرف الخير من الشر ؟! ، إن قال بالعقل : قيل العقل عنده هو تفاعلات كمائية عبثية، نتيجة الانتخاب الطبيعي الذي يسعى لبقاء الأقوى ، فكيف نعلم أن عقل الإنسان وفق الرؤية الإلحادية يدل على الصواب، وليس مجرد تفاعلات عبثية أدت إلى نتائج لا صلة لها بالحقيقة ؟! .

يقول (دوكنز) –وهو أشهر الملاحدة في هذا الزمن– : " الكون كما نشاهده يتمتع بالخصائص التي نتوقعها تماما، إن كان في حقيقته بلا تصميم، بلا غاية، بلا شر ، بلا خير ، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية "

ثالثا : هنا أصول توضح هذه الإشكال لابد من النظر إليها في هذا المقام، منها :

١- أن الله تعالى لا يخلق شراً محضاً، فأفعال الله – تعالى –كلها خير، و الشر في المفعولات ليس محضاً بل نسبياً، فتنظر للألم تجد أنه شر من حيث الإيذاء، ولكنه باعتبار مآله يكون خيراً، ففي الدنيا قد يكون الألم سبيلا للراحة، كألم الدواء، وفي الآخرة قد يكون الألم كفارة للذنوب، و بوجود الشر يُعرف الخير، فالخط المستقيم لا تعلم استقامته إلا إذا علمت معنى الاعوجاج، ومع عدم الشر تُفقد الإرادة ، فلا يكون هناك اختيار، فما من شر من جهة إلا وهو مؤدي إلى خير من جهات عدة، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها .

٢- الإيمان بحكمة الله وعدله، و أن الله لا يظلم أحدا مثقال ذرة، و أن أفعاله كلها كمال .

٣- أن الكمال الإلهي الواجب من آثاره تعدد الموجودات، فصفة الرحمة من آثارها وجود المرحوم، وصفة الغضب من آثاره وجود المغضوب عليه .

٤- أن يعتقد الإنسان أنه لا يستطيع الإحاطة بحكمة الله ، ويفرّق بين الكمال الإلهي و النقص البشري، فالملحد يرى أن الله يجب أن يفعل كما يفعل الإنسان الحكيم !! وهذا خطأ فلله كمال غير مماثل لكمال الإنسان، ولا يمكن إدراكه، فلا يحكم على الفعل الإلهي بالنظر للفعل البشري .

٥- استحضار النظرة الأخروية الغائيّة ، و عدم الاقتصار على النظرة الدنيوية، فالملحد لما ينظر للظلم في الدينا يغيب عن باله القضاء الأخروي، و ما يكون للمظلوم في الآخرة من نفع ، ويغيب عن باله أن هذه الدنيا دار امتحان و الغاية هي الآخرة .

الشبهة الثانية : أنه لا يمكن العلم بوجود الله ، لأن العلم لا يكون إلا بالحس والتجربة.

الجواب : أن زعم أن ما غاب عن حواسنا لا تمكن معرفته، زعم فاحش الغلط يخالف العلم الضروري والبديهي، فالإنسان يقطع بوجود أمور كثيرة و إن لم يحسها، كالعلم بمدينة ما ، أو وجود دولة ما –كالدولة العباسية – لإثبات النقل المتواتر لذلك، كذلك العقل يحصل به

العلم بكثير من الأمور الغائبة، بل حتى العلم التجريبي يستخدم الأدلة العقلية فيثبت ما غاب عن الحس، فتجد أن العلم أثبت الإلكترون مع أنه لا يُحس استدلالاً بأثره، وكذلك الجاذبية.

بل حتى التجربة والملاحظة تكون على بعض أفراد النوع، ثم يُعمم حكمها على بقية الأفراد، لأنه تجربتها وملاحظتها كلها متعذر، فمثلاً: تتعذر تجربة كل أفراد النار للحكم بأنها محرقة، و إنما يُجرب بعضها ثم يقيس ما جربه على غيره من النيران، وهذا قياس تمثيل ، ألا ترى أنك إذا رأيت أسداً يأكل لحما ثم رأيت آخراً مثله، ثم رأيت آخرا كذلك، تحكم على جميع أفراد الأسود بأنها حيوانات لاحمة، وذلك قياس تمثيل، و كذلك قياس الأولى يدل على العلم من باب أولى، كأن ترى هاتفاً صُنع فإنه من باب أولى أن تحكم بصنع الهاتف الأكثر تطوراً و بصنع الكمبيوتر .

و الحاصل أن العلم بأن للمبنى بانياً إن حصل بالحس، فإن العلم بأن للكون خالقاً يحصل بالأولوية العقلية الضرورية، فهو أظهر ، ومنكر كل ما غاب عن حسه، مكابر منكر للضرورة، وكذلك نقول: أن الله يرى في الآخرة، و يُسمع كلامه، وهناك من سمع كلامه من الأنبياء في الدنيا، فالحس أيضاً دل على وجوده، ولكن لا يلزم أن يسمعه كل أحد أو يراه حتى يؤمن به !!، فإن المباني لم ير من بناها إلا قليل ، ومع ذلك يجزم الجميع بوجود من بناها .

وأي اختبار يبقى للعبد إن رأى ربه ؟! فإنه عند رؤية الله ينتهي الاختبار، ولذلك جعل الله من خواص أهل الإيمان الإيمان بالغيب فقال (**الذين يؤمنون بالغيب**) ، أما إذا أصبح الغيب مشاهداً حصل الإيمان الاضطراري لا الاختياري ، قال تعالى (**هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسب في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون**) قال ابن سعدي مفسراً للآية : " و الحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانا بالغيب، وكان اختيارا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق و الحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقلع عما هو فيه " .

الشبهة الثالثة : العلم يعارض الدين .

الجواب : العلم الصحيح لا يعارض الدين الصحيح؛ بل يدل عليه، فالحق لا يتعارض، و ادعاء معارضة الإسلام للعلم دعوى لا دليل عليها ، نتجت من عدة أسباب، منها:

١- التصور الخاطئ للدين، فالإلحاد المعاصر نشأ في المجتمع الغربي الذي كان على النصرانية المحرفة، والتي تشمل عقائد مخالفة لصريح المعقول، فنتج عن ذلك أن أصبح عند كثير من هؤلاء نظرة مشوّهة عن الدين، ثم عمموا هذه النظرة على كل الأديان .

٢- الاعتماد على نظريات علمية خاطئة من الأساس، كنظرية التطور المتهافتة ، و كنظرية أزلية المادة التي صاح بها الملاحدة سنين طويلة ، حتى تبين فسادها و أصبحوا الآن يقرون بحدوث العالم .

٣- بعض أهل العلم الشرعي يعارض العلم معارضة فاسدة لا يوافقه عليها كثير من العلماء الشرعيين، فيظن هؤلاء أن معارضة ذلك العالم هي معارضة للدين، وهذا خطأ بيّن من الطرفين .

يقول ابن تيمية : "... و هؤلاء عندهم أمور معلومة من الحسابيات، مثل وقت الكسوف و الخسوف، و مثل كروية الأفلاك، و وجود السحاب من البخار، و نحو ذلك من الأمور الطبيعية و الرياضية، فيحتجون بها على من يُظن أنه من أهل الشرع، فيُسرع ذلك المنتسب إلى الشرع برد ما يقولونه بجهله، فيكون رد ما قالوه من الحق سبباً لتنفيرهم عما جاء به الرسول من الحق "

٤- أن يعتمد بعض الملاحدة على نظريات علمية دل عليه دليل علمي، ولكنه يُحمّل هذه النظرية أكثر مما تحتمل، فيزعم أنها تدل على ما لا تدل عليه ، أو يظن أنها تعارض الدين الإسلامي وهي لا تعارضه، فيظن أن استدارة الأفلاك أو معرفة الأسباب الحسية معارضة للدين الإسلامي، والأمر ليس كذلك، بل دلت الأدلة أن الله يخلق بالأسباب .

يقول ابن تيمية موضحا ذلك : " ... وتحقيق الأمر فيه وبيان أن ما علم بالحساب علماً صحيحاً لا ينافي ما جاء به السمع وأن العلوم السمعية الصحيحة لا تنافي معقولاً صحيحاً، إذ قد بسطنا الكلام على هذا وأمثاله في غير هذا الموضع، فإن ذلك يحتاج إليه في هذا ونظائره مما قد أشكل على كثير من الناس حيث يرون ما يقال أنه معلوم بالعقل مخالفاً لما يقال أنه معلوم بالسمع، وأوجب ذلك أن كذَّبت كل طائفة بما لم تحط بعلمه. حتى آل الأمر بقوم من أهل الكلام أن تكلموا في معارضة الفلاسفة في الأفلاك بكلام ليس معهم به حجة لا من شرع ولا من عقل، وظنوا أن ذلك من نصر الشريعة وكان ما جحدوه معلوماً بالأدلة الشرعية أيضاً.

الشبهة الرابعة : أن الدين يأتي بأمور لا أخلاقية كالقتال .

الجواب : كما تقدم لا يوجد لدى الملحد معيار موضوعي صحيح يجعله يقول : هذا صواب و هذا خطأ، وهذا أخلاقي وهذا لا أخلاقي، فالكون عنده عبارة عن صدفة، لا غاية له ،و لا ضمان معرفي أو أخلاقي، بل الإنسان عبارة عن حثالة كميائية عشوائية . كذلك ما يزعم الملحد أنه لا أخلاقي في الدين، لا يكون كذلك، بل يكون الملحد يريد أن يُحكّم عرفا معينا على الدين، أو أنه ينظر نظرة قاصرة ، فالقتال – مثلا – يختلف حكمه باختلاف سببه، فلا يشك عاقل أنه إن كان لنصرة المستضعفين، وللدفاع عن النفس ، أو لإنقاذ الأمم من النار و إزالة طواغيتها المانعة من الدعوة، فهو شرف أخلاقي عظيم ، لا كما يقول الملحد .

أقسام التوحيد

اعلم – وفقك الله – أن تقسيم الشيء يختلف باختلاف جهة التقسيم:

– فلو نظرنا إلى التوحيد من جهة ثبوته لله ، فالتوحيد ينقسم إلى :

١– ربوبية

٢– ألوهية

٣– أسماء وصفات .

– ولو نظرنا إلى التوحيد من جهة فعل العبد و توحيده لربه، فهو ينقسم إلى :

١– معرفة و إثبات

٢– قصد وطلب.

مسألة: كيف يكون التوحيد مقسماً ؟! ألا ينافي التقسيم الوحدة ؟!

الجواب : هناك تقسيم ذوات، وهناك تقسيم اعتبارات، و تقسيم الذوات ينافي التوحيد، بخلاف تقسيم الاعتبارات، فلا ينافي التوحيد.

مثال لتقسيم الذوات: قول النصارى أن الابن و الروح والأب واحد!! ، هنا ثلاثة ذوات فكيف تكون واحداً ؟!

ومثال آخر لتقسيم الذوات : قولنا : بهمية الأنعام تنقسم إلى إبل وبقر و غنم ، هذا تقسيم ذوات فلا يمكن أن تكون هذه الأشياء شيئا واحداً .

أما مثال تقسيم الاعتبارات : لو قلنا : محمد الناجح الوحيد في صفه، ثم قلنا : هو ناجح في النحو ، وناجح في الفقه ، وناجح في الحديث ، هل قولنا هذا ينافي توحّد محمد بالنجاح؟! قطعا لا ، إنما هو شرح لتوحد محمد بالنجاح

إذن قولنا: لله توحيد الربوبية و الألوهية و الأسماء و الصفات، هو شرح لوحدانية الله، وكذا قولنا لله توحيد المعرفة و الإثبات، و توحيد القصد والطلب، فهذا شرح لتوحيدنا لله .

مسألة : هل تقسيم التوحيد بدعة تَيميّة ؟

الجواب : لا، وبيانه من وجوه :

١- سبق ابن تيمية لهذا التقسيم كثير من الأئمة -كابن بطة فقد ذكر هذا التقسيم في الإبانة الكبرى - .

٢- الفرق المخالفة لابن تيمية قسّمت ، فالأشعرية مثلا يقولون : توحيد ذات و صفات و أفعال .

٣- البدعة تكون في العبادات، أما التقسيمات فهي من باب التراتيب الذهنية، فإن كانت صحيحة، لم يكن فيها حرج حتى لو كانت صورة التقسيم حادثة، فمثلاً : تقسيم الحديث إلى صحيح وضعيف وحسن، وتقسيم الواجب إلى موسع ومضيق ، وتقسيم الصلاة إلى شروط و أركان وواجبات ، وتقسيم الفرض إلى كفائي وعيني ، كل هذه التقسيمات لم تكن في عهد الصحابة، ولكنها صحيحة، لذا ذكرها أهل العلم تسهيلا للطالب ليرتبها في ذهنه .

العلاقة بين أقسام التوحيد

- توحيد الربوبية و الأسماء و الصفات (يستلزمان) توحيد الألوهية ، فمن علم أن الله الخالق الرازق المدبر و أن له الكمال المطلق وبيده مقاليد الأمور (لزمه) أن يوحده في العبادة .

و توحيد الإلهية (يتضمن) توحيد الربوبية الأسماء و الصفات، فالعبد لا يوحد الله بالعبادة إلا وقد أقر بأنه خالق رازق مدبر له الكمال، فعبادته — سبحانه — تتضمن الإقرار بكماله؛ إذ العاجز الناقص لا يوحّد بالعبادة .

- توحيد المعرفة و الإثبات (يستلزم) توحيد القصد و الطلب، فمن عرف الله بربوبيته وصفاته لزمه أن يوحده في عبادته فيقصده بالعبادة دون غيره، ويطلبه قضاء حوائجه وتقبل أعماله .

و توحيد القصد و الطلب (يتضمن) توحيد المعرفة و الإثبات، فمن قصد بالعبادة ربه لم يقصده إلا وقد عرفه، إذ المجهول و الناقص لا يُوحد بالطلب والقصد .

توحيد المعرفة و الإثبات

هو : معرفة الله – تعالى – بربوبيته و أسمائه وصفاته و أفعاله، و إثباتها له كما يليق بجلاله، فيعتقد العبد أن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر، و أن له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، لا شريك له في ذلك، بل تفرد سبحانه بالكمال المطلق، وتنزه عن النقص و الشريك و الأنداد .

أنواع توحيد المعرفة و الإثبات

يشمل توحيد المعرفة و الإثبات :

١- توحيد الربوبية و ٢- توحيد الأسماء و الصفات .

و لا يمكن أن يوحد العبد ربه إلا بعد معرفة كماله ، فالمجهول لا يتعلق به حب أو بغض أصلا، والناقص لا يُقصد و لا يُطلب ، ولا تتعلق به القلوب، ولذا كلما ازداد العبد معرفة بربه ازداد إيمانه، فكان لله محباً ، ومنه خائفاً ، وله راجياً .

أولاً: توحيد الربوبية

كلمة (رب) في اللغة لها حالتان :

١- خالية من (أل) التعريف، ومضافة، فقد تُطلق على الله –كقوله تعالى (الحمد لله رب العالمين) –، و قد تُطلق على المخلوق، مثل : رب الإبل ، رب الدار ، أي : مالكها و مربيها ومصلح أمرها .

٢- مُعرّفة بـ(أل) التعريف، بلا إضافة، فلا تُطلق إلا على الله، فهو (الرب) سبحانه ، ويكون معناها: الخالق المالك المدبر الرزاق، الذي بيده مقاليد الأمور، والمصلح لأمور خلقه.

تعريف توحيد الربوبية : اعتقاد انفراد الله – تعالى – بالملك و الخلق و الرزق و التدبير، و الأمر.

أنواع ربوبية الله لخلقه :

١- ربوبية عامة لجميع المخلوقات، وهي خلق الله للمخلوقات ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم.

٢- ربوبية للمؤمنين، فيربيهم بالنعم الدينية ، فيهديهم للإيمان، ويزيده، ويوفقهم للخير، ويزيح من طريقهم ما يُعيقه.

أدلة توحيد الربوبية:

اعلم — وفقك الله — أن كل أنواع أدلة وجود الله السابقة تدل على ربوبية الله — تعالى، و إفراده سبحانه بالربوبية أدلته كثيرة منها :

١- دليل التمانع .

و هذا الدليل يقول : لو فُرض للعالم صانعان فعند تصور اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه و الآخر إماتته، فإما أن يحصل (١)مرادهما، أو(٢) مراد أحدهما، أو(٣) لا يحصل مراد أحد منهما = و الأول ممتنع، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، و الثالث ممتنع، لأنه يستلزم خلو الجسم عن الحركة و السكون وهو ممتنع، ويستلزم أيضا عجز كل منهما، و العاجز لا يكون إلها . و إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان هذا هو الإله القادر و الآخر عاجزاً لا يصلح للربوبية .

٢- قياس الأولى.

فكل صفة يكون الاتصاف بها كمالاً فالله أولى بالاتصاف بها على الوجه اللائق به — جل جلاله — لأنه سبحانه معطي الكمال، ومعطي الكمال أولى به، فالناقص لا يعطي الكمال، و نحن نرى أن تفرد ملوك الدنيا بالملك و التدبير في مملكتهم أكمل من الاشتراك، وأن الملك لو أعطى العطية دون أن يشاركه ملك آخر فيها، يكون أكمل من المشاركة، فالله أولى بالتفرد في الملك والخلق و الرزق و التدبير .

٣-دليل النظام.

فانتظام أمر العالم كله و إحكامه من أدل دليل على أن مدبره واحد.

٤-دليل الكمال

فتصور الكمال الإلهي الواجب يمنع من الشرك في الربوبية، لأن كامل الملك و الخلق و الرزق، لا يشاركه أحد؛ لذا عند العلم بوجود صانع لهذا العالم، فإن الواجب في الذهن هو العلم بأن هناك صانعاً، ولا يقول عاقل يجب أن يكون هناك عدة خالقين ! فالتعدد و الاشتراك لا يوجبه الذهن بل يمنعه عند تصور الكمال الإلهي، فيوجب العلم وجود إلها خالقاً مدبراً متفرداً بالكمال المطلق .

٥-دلالة الشرع

وهي الاستدلال بالنصوص الشرعية الدالة على وحدانية الله تعالى بالربوبية، بعد إثبات الوحي و النبوة .

وهناك أدلة كثيرة على نفي الشرك في الربوبية وامتناعه، وإثبات التوحيد، وهذا مما هو معلوم بالفطرة، بل حتى من فسدت فطرته وقال بوجود أكثر من خالق، فإنه يجعل أحدهما أكمل و أعلى من الآخر، لامتناع تساويهما، كما زعمت الثنوية .

أصول توحيد الربوبية

يقوم توحيد الربوبية على أصلين عظيمين :

الأول : عموم خلقه وربوبيته، **الثاني** : عموم حكمته و إحسانه .

فنعتقد أن الله تفرد بالخلق و الرزق وبيده مقاليد الأمور، ونعتقد أنه أحسن كل شيء خلقه، و أتقنه، و رحمته وسعت كل شيء، فأمد خلقه بالنعم، و ما خلق الخلق إلا لحكمة .

الشرك في الربوبية و مظاهرة

الشرك في الربوبية يكون على قسمين :

١- شرك تعطيل، و ذلك بأن يعطل أصلاً من أصلي توحيد الربوبية، أو كلاهما، وهو إما أن يكون تعطيلاً كلياً أو جزئياً .فالكلي مثل : الإلحاد ونفي وجود الخالق، و الجزئي مثل: نفي البعث و النشور .

ومن أمثلة شرك التعطيل ، شرك فرعون ، عندما قال : ((وما رب العالمين)) وقال ((ما علمت لكم من إله غيري))

٢- الشرك بالأنداد، بأن يجعل لله أنداداً في أصلي الربوبية أو أحدهما، فيقع في التشبيه، وهذا أيضا يكون كلياً و جزئيا، فالكلي مثل: القول بوجود خالقين –كقول المانوية و الثنوية- والجزئي مثل : كالقول بتأثير الأنواء و النجوم في نزول المطر و في صفات المخلوقات .

يقول ابن تيمية : " فهذان الأصلان عموم خلقه، وعموم إحسانه وحكمته أصلان عظيمان، و إن كان من الناس من يكفر ببعض الأول، كالقدرية الذين يُخرجون أفعال العباد عن خلقه، ويضيفونها إلى محض فعل ذي الاختيار، أو الطبيعية الذين يقطعون إضافة الفعل إلى الله – سبحانه – ويضيفونه إما إلى الطبع أو إلى جسم فيه طبع ... ومن الناس من يجحد بعض الثاني، أو يعرض عنه، متوهما خلو شيء من مخلوقاته عن إحسان خلقه و إتقانه وعن حكمته، ويظن قصور رحمته وعجزها، من القدرية الإبليسية، أو المجوسية وغيرهم "

واعلم أن نواقض توحيد الربوبية منها الأكبر و الأصغر، فالأكبر مثل : إنكار الخالق ، و إنكار البعث و النشور، و القول بتأثير الكواكب(تأثيراً مستقلاً) .

و الأصغر مثل: أن يجعل ما ليس بسبب سبباً من غير دليل، و كنفي خلق أفعال العباد (إذا لم ينكر العلم) فقد ذكر الإمام أحمد وغيره أن القول بعدم خلق أفعال العباد لا يخرج من الملة إذا لم ينف صاحبه العلم السابق.

أمثلة على الشرك في الربوبية :

١- التطير ، قال صلى الله عليه وسلم (الطيرة شرك) فهي شرك أصغر إن ظن أن الطير سببا، و إن ظن أنه يؤثر استقلالاً فشرك أكبر .

٢- نسبة النعم لغير الله وادعاء تأثير الكواكب و النجوم ، قال صلى الله عليه وسلم (هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا : الله ورسوله أعلم، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي و كافر، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، و أما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) فادعاء تأثير الكواكب يكون شركا أكبراً إذا زعم أنها تؤثر استقلالا، ويكون شركا أصغراً إذا زعم أنها سبب، ويدخل في هذا ما ينسب إلى الأبراج في هذا الزمن .

ثانياً: توحيد الأسماء و الصفات

تعريفه : هو : ((اعتقاد انفراد الرب بالكمال المطلق بلا شريك، بإثبات ما أثبته الشرع من الأسماء والصفات على ما يليق به — جل جلاله — من غير تعطيل ولا تحريف ولا تكييف و لا تمثيل، و نفي ما يخالف هذا الكمال من النقائص و العيوب)).

فمعنى قول (من غير تعطيل) أي من غير إبطال معانيها و ترك إثباتها، ومعنى قول (لا تحريف) أي من غير تغيير المراد منها، وصرف معانيها إلى معاني أخرى.

و معنى قول (لا تكييف) أي : أنّا نجهل كيفية صفات الله، فالنفي هنا هو نفي علمنا بالكيف، لا نفي وجوده، فالله أعلم بكيفية صفاته؛ لذا قال مالك (الكيف مجهول) ولم يقل معدوم ، وقال أحمد : " ينزل كيف شاء " ، فلصفات الله كيفية لا نعلمها الله يعلمها.

ومعنى قول (لا تمثيل) أي لا نقول : يد كيد ، و سمع كسمع ، فلا نجعل صفات الله مماثلة لصفات خلقه، ولا يعني نفي التمثيل نفي الصفات أو معانيها، فإن هذا لا تعرفه العرب، فالاشتراك في إثبات الصفة لا يقتضي التمثيل، لذا العرب تثبت للنملة ساق، وللفيل ساق، ولا تقول : ساق النملة كساق الفيل !! ، فإذا كان الاشتراك في الصفة بين المخلوقات لا

يقتضي التمثيل، فالاشتراك في المعنى العام للصفة لا يقتضي تمثيل الله بصفات المخلوقين من باب أولى، لذا السلف جعلوا التمثيل قول : يد كيد، وسمع كسمع ، ولم يجعلوا إثبات السمع لله و اليد تمثيلاً، إنما يكون تمثيلاً إذا قيل : يد الله كيد كذا – والعياذ بالله –، جاء ذلك عن أحمد و إسحاق و أبي زرعة .

أنواع أدلة توحيد الأسماء و الصفات

١- **النقل** ، فمن الكتاب قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) و قوله (ولله الأسماء الحسنى) و غير ذلك من الآيات الذاكرة لأسماء الله وصفاته .

ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) ، وغير ذلك من الأحاديث الواردة في ذلك .

و أما الإجماع فكل الطوائف متفقة على أن (الله تعالى متفرد بالكمال المطلق) لكن من ضلّ منها أخطأ في مفهوم الكمال، فظن أن نفي الصفات هو الكمال، و إلا فالقول بأن الله تعالى متفرد بالكمال المطلق، متفق عليه .

٢- **العقل** ، و العقل يدل على تفرد الله بالكمال في أسمائه و صفاته من وجوه كثيرة، منها :

أولا : الله هو الأول، و إليه يرجع إيجاد كل الموجودات الحادثة، وهذا يلزم ألا يكون مفتقراً إلى غيره –كما تقدم –فثبت له الكمال المطلق، و تصور الكمال المطلق يتضمن التفرد، فلا يمكن أن يكون الكمال مطلقاً إلا مع التفرد، فمثلا الكمال في صفة الملك و الرزق و الخلق و الإرادة و غيرها ينافيه وقوع الشركة، فلا يُتصور كمال المُلك المطلق إلا مع التفرد فيه، فالاشتراك في الملك ليس كمالاً مطلقاً بالاتفاق .

ثانيا: دلالة أفعال الله و مخلوقاته على كماله ، فقد تقدت دلائل أن الله هو الخالق – جل جلاله – ، فإذا نظرت إلى إيجاد هذا الخلق، و آثار أفعال الله، وما فيها من الاتقان علمت أنه خالق عالم قدير مريد حكيم، وهذه صفات لا تكون إلا مع صفة الحياة، و إذا وجدت هذه الصفات على الكمال استلزم ذلك سائر الكمالات .

قال ابن القيم : " و خلقه – تعالى – لهم متضمن لكمال قدرته و إرادته وعلمه وحكمته و حياته، وذلك يستلزم لسائر صفات كماله و نعوت جلاله، فتضمن ذلك إثبات صفاته و أفعاله و وحدانيته في صفاته "

ثالثا: دلالة الأولوية ، المسمى (قياس الأولى) و هو المذكور في قوله تعالى (و لله المثل الأعلى)، وهذا يدل على تفرد الله تعالى بالكمال من وجوه منها : أن الكمال ثابت للمخلوقات فالله أولى به؛ لأن معطي الكمال أولى به؛ لذا ذم الله قوم عاد لـمّا استكبروا بقوتهم، ونسوا أن من خلقهم أولى منهم بالقوة، فقال : ((فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منّا قوة، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، وكانوا بآياتنا يجحدون))

٣- **الفطرة**، فالعباد مفطورون على اعتقاد كمال الله تعالى، و تنزهه عن النقصان؛ لذا جاءت الرسل بتذكير أقوامهم بالفطرة، فأنكرت عبادتهم لناقص الصفات، كما قال إبراهيم لأبيه : ((يا أبت لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر و لايغني عنك شيئاً)) .

اعلم – وفقك الله – أن العقل و الفطرة يدلان على أن لله الكمال المطلق، و يدلان على بعض الصفات – كالعلو العلم و القدرة – و لكنهما لا يدلان على كل صفة من صفات الكمال، و ذلك لعجزهما عن معرفة تفاصيل كثير من الكمالات، فهما يدلان على الكمال إجمالاً ، و على كثير من تفاصيله، لا على جميعها؛ لذا تجد أن بعض أهل العلم يقسم الصفات إلى : (١) عقلية و (٢) سمعية ، ويقصد أن العقلية دل عليها السمع و العقل، والسمعية هي التي لولا السمع ما عرفها العقل .

قواعد أهل السنة في أسماء الله وصفاته

أولا : قواعد أهل السنة في الأسماء

القاعدة الأولى : أسماء الله كلها حسنى، أي : بالغة في الحسن غايته. قال تعالى ((ولله الأسماء الحسنى)) فلا نقص فيها بوجه من الوجوه، فاسم الحيي متضمن للحياة الكاملة التي لم تُسبق بعدم ولا يلحقها فناء، و قل مثل ذلك في جميع الأسماء ، ولدت هذه القاعدة على العلم بمعاني الصفات، إذ الاسم الذي لا يتضمن صفة لها معنى لا يحكم بحسنه .

القاعدة الثانية : أسماء الله (أعلام) باعتبار دلالتها على الذات، و (أوصاف) باعتبار ما دلت عليه من المعاني، فاسم الحي علم يدل على ذات الله ، و هو وصف يدل على صفة الحياة .

مسألة : هل أسماء الله مترادفة أو متباينة ؟

الجواب : التفصيل ، باعتبار دلالتها على الذات مترادفة، و باعتبار دلالتها على الصفات متباينة .

فالحي والعليم و السميع و البصير كلها أسماء متعددة تطلق على ذات الله، فكلها تُطلق بهذا الاعتبار على شيء واحد .

أما بالنظر إلى الصفات فكل اسم دل على صفة غير الصفة التي دل عليها الاسم الآخر، فهي بهذا الاعتبار دلّت على عدة أشياء .

القاعدة الثالثة: أسماء الله إن دلت على وصفٍ متعدٍ دلت على ثلاثة أمور:

١- ثبوت الاسم.

٢- ثبوت الصفة .

٣- ثبوت حكمها ومقتضاها.

مثال : اسم الخالق متعدٍ إلى المخلوق، فيدل على (اسم الخالق + صفة الخلق + وجود المخلوق).

القاعدة الرابعة : دلالة أسماء الله على ذاته وصفاته المقدسة تكون بـ :

١- دلالة المطابقة.

٢- دلالة التضمن .

٣- دلالة الالتزام.

فدلالة المطابقة هي : دلالة الاسم على جميع معناه ، و دلالة التضمن هي: دلالة الاسم على بعض معناه، و دلالة الالتزام : دلالة الاسم على معنى آخر يلزم وجوده مع المعنى الذي دل عليه الاسم .

فكل اسم يدل على (الذات و الصفة) بالمطابقة، و يدل على (الذات وحدها ، أو الصفة وحدها) بالتضمن، و يدل على (صفة أخرى) بالالتزام.

مثال : اسم العليم ، يدل على (ذات الله المسمى بالعليم + صفة العلم) فبالنظر إلى جميعها فالدلالة مطابقة، و بالنظر إلى أحدهما ، فتضمن ، و بالنظر إلى معنى آخر يلزم العلم و هو صفة الحياة، يكون اسم العليم دل على صفة الحياة بالالتزام، لأن كل عالم حي .

القاعدة الخامسة : أسماء الله توقيفية، فلا يجوز أن نسمي الله بغير ما جاء في الشرع .

القاعدة السادسة : ترك الإلحاد في أسماء الله تعالى ، قال تعالى ((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها و ذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يفعلون)) و الإلحاد في أسماء الله : هو الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع :

١- إنكارها أو إنكار ما دلت عليه من معاني الصفات، كما فعل أهل التعطيل .

٢- تشبيهها بصفات المخلوقين ، كما فعل أهل التمثيل .

٣- أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه، كتسمية النصارى له (بالأب) .

٤- اشتقاق من أسماء الله أسماءً للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز على قول بعض أهل العلم .

القاعدة السابعة : أسماء الله غير محصورة بعدد معين، لحديث : " أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك " فدل الحديث أن هناك أسماءً لله غيبية لا نعلهما هو يعلمها سبحانه .

مسألة : هل حديث ((إن لله تسعة و تسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة)) على حصر أسماء الله بعدد معين ؟

الجواب : لا ، فالحديث دل على أن التسعة و التسعين اسما لمحصيها فضل معين، ولم يدل على أنها كل أسماء الله .

مثل ذلك لو قال قائل : لي مائة درهم من وجدها فهي له، فإن قوله لا يدل على أنه لا يملك غيرها من الدراهم .

مسألة : ما المقصود بإحصاء الأسماء في هذا الحديث السابق ؟

الجواب : هناك عدة أقوال في ذلك :

الأول : أن المراد : عدّها حفظاً، ثم الدعاء بها، وقد استدلوا برواية (من حفظها دخل الجنة)

الثاني: أن المراد : من أطاق القيام بحقوق أسماء الله الحسنى قولا وعملاً دخل الجنة ، و استدلوا بأن الإحصاء في اللغة قد يأتي بمعنى الإطاقة، مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : " استقيموا ولن تحصوا " .

الثالث : معرفتها و عقل معناها .

الرابع : أن المراد : قراءة القرآن كاملاً حتى يختمه ، وبذلك يكون قرأها و استوفاها، وفيه لنظر؛ لأن السنة جاءت بإثبات عدة أسماء لله تعالى .

هذه أشهر الأقوال، وقد حرّر ابن القيم الكلام في هذا فجعل الإحصاء على مراتب:

الأولى : إحصاء ألفاظها وعددها

الثانية: فهم معانيها و مدلولها .

الثالثة : دعاؤه بها، وذلك يشمل دعاء الثناء والعبادة و دعاء الطلب والمسألة، فلا يثني على الله إلا بأسمائه ولا يسأله إلا بها، و يتعبد الله بها، فإن علم أن الله سميع ترك قول الزور و الغيبة، و عظمه وأثنى عليه وسأله، فقال: يا سميع .

ثانياً : قواعد أهل السنة في الصفات

القاعدة الأولى : إثبات الصفات توقيفي فلا نُثبت إلا ما جاء به الشرع، من غير تحريف و لا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل .

مسألة : تقدم أن العقل قد يدل على بعض الصفات، فكيف يكون إثباتها متوقف على الشرع فقط ؟

الجواب : أن العقل – كما تقدم – يدل على بعض الصفات من حيث معناها العام، فيُثبت أن الله هو الـمُوجِد لهذا العالم، و هو الذي يمده بما يحتاجه ، و لكن وصف هذه المعاني بالألفاظ الدالة عليها موقوف على الشرع، و لا يمكن للعقل أن يُحدد الصفة بهذا الاعتبار، فالعقل يعلم أن الله أوجد هذا العالم و أمده بما يحتاجه، ولكن هل يثبت له صفة الإيجاد أو الصنع أو التكوين أو الإمداد أو الرزق أو ماذا ؟ العقل لا يحكم بهذا بل الصفة تثبت بالشرع، و العقل هنا يدرك معناها العام فقط ، فيقال : لله صفة الخلق والرزق ، ولا يعبر عن تلك الصفات بغير ألفاظ الشرع لأنها هي الألفاظ المعتبرة ، ولكن في باب الإخبار قد يتوسع في ذلك .

القاعدة الثانية : الألفاظ الواردة في الشرع هي الألفاظ المعتبرة في وصف الله تعالى ، فهي التي تُثبت .

أما الألفاظ المجملة التي تصف الله تعالى و لم يرد الشرع بإثباتها ولا نفيها ، فيتوقف فيها، فلا نثبت الألفاظ ولاننفيها.

و أما معانيها فنستفصل فيها، فإن كانت باطلة نزهنا الله عنها، و إن كانت حقا أثبتنا ذلك المعنى، ولكن لا نثبت اللفظ، بل نرده إلى اللفظ الشرعي الصحيح ، مع أنه في باب الإخبار أو المناظرة قد يُتوسع في بعض الألفاظ .

مثال : لفظ (الجهة و المكان) ، لم يرد إثباته ولا نفيه ، فنقول إن أريد بهذه الألفاظ أن الله داخل خلقه حال بهم فهذا معنى باطل لا نؤمن به، و إن أريد بها أن الله فوق خلقه مستوٍ على عرشه فهذا حق، ولكن نعبر عنه باللفظ الشرعي فنقول : لله صفة العلو و الاستواء ، و لا نقول : جهة أو مكان ، إلا من باب الإخبار أو المناظرة فقد قال به بعض أهل العلم مع الإيضاح وبيان المراد الصحيح ، و بعضهم منعه مطلقاً فلم يقل بلفظ الجهة أو المكان .

مثال آخر : لفظ (الجسم) لم يرد إثباته أو نفيه، فلا يقال به، وأما معناه إن أريد به المعنى اللغوي وهو البدن الكثيف أو أن الله يشابه المخلوقين، فهذا باطل ننزه الله عنه، و إن أريد أن الله موصوف بالصفات، فحق ولكن لا نقول (جسم) ولم يقل أحد من أهل السنة أن الله (جسم) لأن هذا اللفظ احتماله للباطل أشد من لفظ الجهة .

القاعدة الثالثة : كل صفة نفاها الله عن نفسه فإنها تتضمن كمال ضدها؛ لأن النفي المحض ليس بكمال بل قد يكون نقصاً ، فلا يكون كمالاً إلا بتضمنه إثبات ضده ، ألا ترى أن الطفل الصغير العاجز إذا نفى الظلم أو البطش كان ذلك نقصاً لا كمالاً ، فلو قال لك طفل عاجز : لا تخف أنا لن أظلمك ولن أضربك !، لعددت هذا نقصاً لأنه لا يمتلك كمال القدرة أصلا .

مثال : قال تعالى (لا تأخذه سنة و لا نوم) و قال (ولا يظلم ربك أحداً) دل ذلك على نفي النوم والتعب و الظلم وعلى إثبات كمال القدرة و الحياة و الحكمة و إحكام الحكم و الرحمة .

القاعدة الرابعة : كل صفة ثبتت بالنقل الصحيح، فهي كمال مطلق ، لا يحكم العقل الصحيح بدخول النقص فيها

القاعدة الخامسة: صفات الله تعالى نُثبت ألفاظها و معانيها ، ولا نعرف كيفيتها، قال تعالى (ولا يحيطون به علما)

القاعدة السادسة : كل اسم ثابت لله تعالى فهو متضمن لصفة، لا العكس فليست كل صفة يُشتق منها اسم لله .

القاعدة السابعة : طريقة القرآن في ذكر الصفات هي : التفصيل في الإثبات و الإجمال في النفي، لأن ذلك أشرف و أكمل ، فتجد أن ذكر الصفات المثبتة في القرآن كثيرة (السمع ... العلم .. القدرة ... ألخ) و عند النفي يقع الإجمال كقوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

وهذا معلوم ، فإن من يصف ملكا من ملوك الدنيا بقوله : أنت قوي عادل حكيم لا تتصف بالسوء ، أكمل ممن يصفه بقوله : أنت ملك طيب لست سارقا ولا زانيا ولا شارب خمر ولا وضيع و ظالم ولا فقير ... إلخ .

و قد لا يُجمل القرآن في النفي لمناسبة التبيين و التعيين في موضع معين، كالرد على مقالة معينة، كما رد الله تعالى قول اليهود فقال ((و قالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم و لُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان يُنفق كيف يشاء))

وبهذا تعلم أن طريقة المتكلمين في تكثير السلوب غير فاضلة، فضلا عما يقع فيها من التعطيل، لذا إذا وصفوا الله أكثروا من النفي فيقولون : ليس جوهرا ولا عرضا و لا مماسا ولا متحيزا ولا جسما و لا ولا ... إلخ .

القاعدة الثامنة : الصفات يُستعاذ بها و يُحلف بها ، ففي الحديث (أعوذ برضاك من سخطك) و قد بوّب البخاري باب (الحلف بعزة الله وكماله وصفاته) ، ولكن الصفة لا تُدعى : فلا يقال : يا سمع الله و يا رحمة الله !، فإن هذا محرم، و نص بعض أهل العلم أنه فعل كفري .

القاعدة التاسعة : باب الأخبار أوسع من باب الصفات ، فالإخبار عن الله يجوز بألفاظ غير توقيفية إن صح معناها وأُمن اللبس .

القاعدة العاشرة :كل صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه الله أولى بها ، هذه تُعرف بـ(القاعدة الأكملية)

القاعدة الحادية عشرة : القول في الصفات فرع عن القول في الذات، لأن الصفة لا تنفك عن الذات ، فكما أن ذاته سبحانه ليست كذواتنا ، فصفاته ليست كصفاتنا .

القاعدة الثانية عشرة : القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر ، فمن أقر ببعضها لزمه الإقرار بجميعها .

قال ابن تيمية : " ومن فرّق بين صفة و صفة مع تساويهما في أسباب الحقيقة و المجاز كان متناقضاً في قوله، متهافتاً في مذهبه، مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب و كفر ببعض "

أقسام الصفات

أقسام الصفات باعتبار تعقلها بالمشيئة و الإرادة :

١- صفات ذاتية ، وهي التي لم يزل الله ولا يزال متصفا بها ولا يُقال فيها أنها تكون بعد الإرادة و المشيئة، مثل : الحياة ، اليد ، العلم ، العين .

٢- صفات اختيارية (فعلية) ، يقُال فيها أنها كانت بعد الإرادة و المشيئة، مثل : النزول ، الخلق ، الاستواء .

٣- صفات ذاتية فعلية، أي ذاتية من جهة أصلها و نوعها ، فعلية من جهة آحادها ، مثل: الكلام، السمع، البصر فالكلام مثلاً : من جهة أصله و نوعه ذاتي ، فالله لم يزل متكلماً ، ولا يقال أن الكلام كان ممتنعاً عليه ثم تكلم، بل لا يزال متكلما سبحانه، تكلم ويتكلم وسيتكلم ، أما آحاد الكلام أي (الكلمات المعينة) فهي بعد الإرادة، فمثلا كلمة (كن) التي خلق الله بها آدم كانت بعد الإرادة، ليست ملازمة للذات من الأزل .

أقسام الصفات باعتبار الثبوت و النفي :

١- ثبوتية وجودية : وهي كل صفة أثبتها الشرع لله ، كالكلام و الحياة و اليد و السمع .

٢- منفية (سلبية) : مثل كل صفة نفاها الشرع عن الله -كالنوم و الولادة و الظلم و النسيان - وكل صفة معيبة أو تقدح في الكمال الثابت لله، فإنها منفية عن الله — تعالى -. وهذه الصفات منفية عن الله ولكن نفيها يتضمن كمال ضدها [كما تقدم في القاعدة الثالثة من قواعد الصفات]

الاتجاهات المخالفة لأهل السنة و الجماعة في باب الأسماء و الصفات

الاتجاه الأول : غُلاة المعطلة ، **كالجهمية و كثير من الفلاسفة و الباطنية** ، الذين حُكي عنهم نفي جميع الأسماء و الصفات، أو قالوا هي مجاز ، و حُكى آخرون عن بعضهم أن منهم من قال لله اسمين فقط (الخالق) و (القادر).

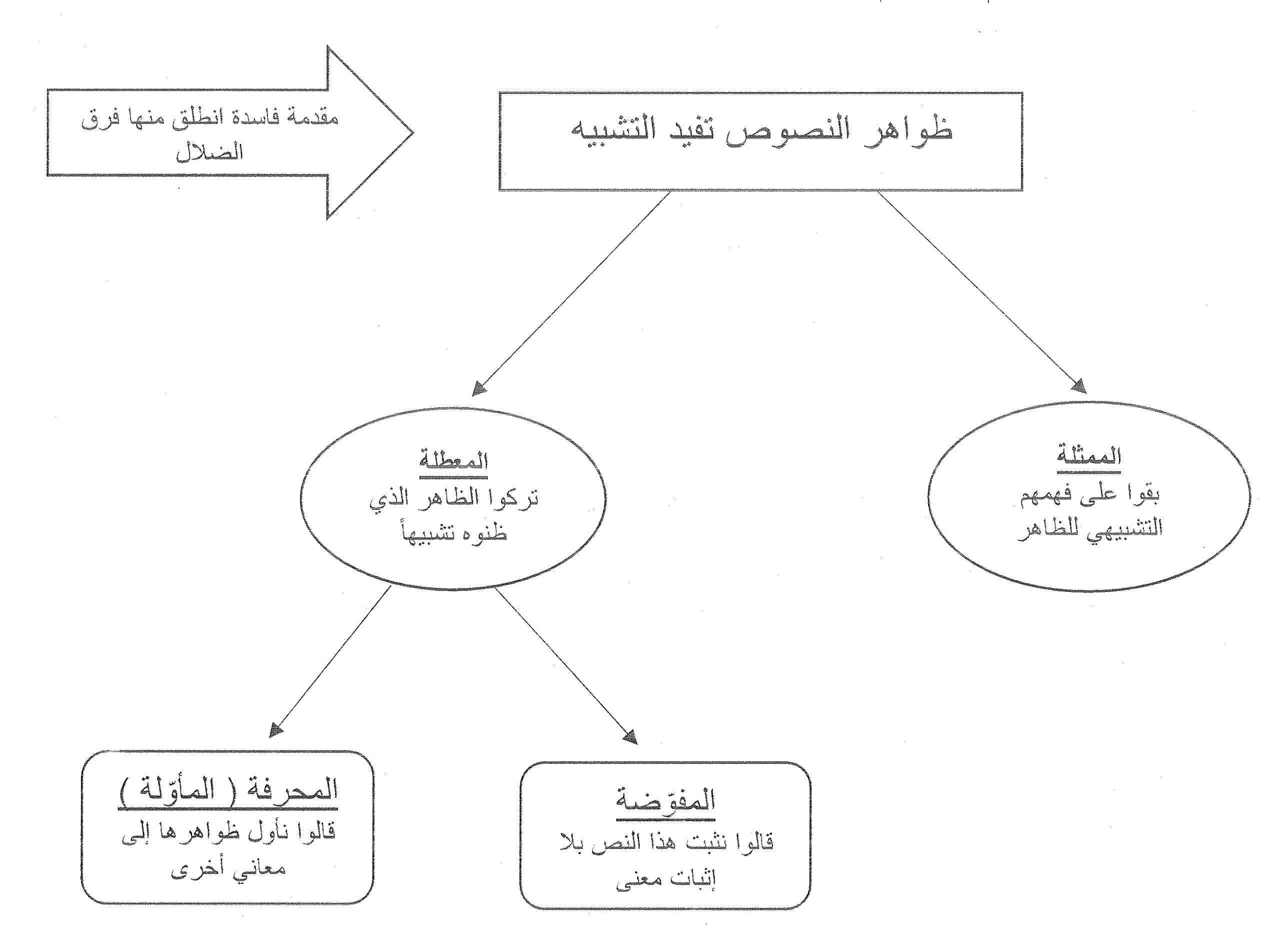
الاتجاه الثاني : من نفى الصفات دون الأسماء، وهذا قول **المعتزلة** ومن اتبعهم وقد قالت المعتزلة : الله قادر بلا قدرة، و حي بلا حياة ، و عالم بلا علم ، إلا العلّاف منهم فقد حُكي عنه أنه قال: قادر بقدرة ، وقد ذكر ابن تيمية أن حقيقة قول المعتزلة (قادر بلا قدرة) هو إثبات الصفة و أن الخلاف معهم قريب من اللفظي إلا من قال منهم بالأحوال فالخلاف معه حقيقي، فيكون كثير من المعتزلة أثبتوا أن الله (عالم قادر حي) و نفوا بقية الصفات و أثبتوا الأسماء.

الاتجاه الثالث: من أثبت الأسماء، و أثبت بعض الصفات و أوّل أو فوّض البعض الآخر ولم يثبته ، **كالأشعرية** الذين أثبتوا سبع صفات (العلم – الكلام – القدرة – السمع – البصر – الإرادة – الحياة) و زاد بعضهم (الإدراك) و زاد بعض متقدميهم و **الكلابية** على ذلك بعض الصفات الذاتية لا الفعلية، وزادت **الماتريدية** (التكوين)

ملاحظة : الصفات التي أثبتتها الأشعرية و الماتريدية لم يثبتوا جميعها على طريقة أهل السنة .

الاتجاه الرابع : الممثلة ، الذين شبهوا صفات الخالق بالمخلوق، كما فعل بعض متقدمي الرافضة –كداود الجواربي ، وكما حُكي عن الكرامية و السالمية.

اعلم – وفقك الله – أن هذه الاتجاهات المخالفة انطلقت لباطلها من مقدمة باطلة و هي (أن ظواهر نصوص الصفات تفيد التشبيه) فبقيت المشبهة على التشبيه و انصرفت المعطلة عنه إلى التحريف والتفويض؛ لذا جاء عن السلف أن المعطلة مشبهة، وذلك لأنهم شبهوا الله بالمنقوصات كالأصنام و العدم، ولأنهم ما عطلوا حتى ظنوا أن ظاهر النص يفيد التشبيه، فهم شبهوا ثم عطلوا .



الرد الإجمالي على الاتجاهات السابقة

أولا : ظواهر النصوص لا تقتضي التشبيه، فالقول في الصفات فرع عن القول في الذات، فكما أن ذات الله – تعالى- لا تشبه ذواتنا، فكذا صفاته لا تشبه صفاتنا ، و الاشتراك في المعنى العام في الصفة لا يقتضي التشبيه، فالنملة لها ساق و الفيل له ساق ، ولا يُقال: (ساق النملة مثل ساق الفيل ، لاشتراكهما في الصفة)!!، فإن هذا يخالف العقل، ولسان العرب لا يطلق على ذلك تمثيلاً، فإذا كان اشتراك المخلوقات (كالنملة و الفيل) في الصفات لا يقتضي تشبيهاً بل بينهما من التباين والفرق الشيء العظيم، فكيف يقتضي ذلك التشبيه بين الخالق و المخلوق مع أن التباين بين الخالق و المخلوق أعظم بكثير من التباين بين المخلوقات ؟! هذا محال .

ثانياً : لا يوجد موجود إلا وهو متصف بالصفات، و مشترك مع موجود غيره في صفة من الصفات، فالموجود له صفة الوجود فسيشترك مع كل موجود في صفة الوجود، فمن ينفي عن الشيء كل الصفات فهو ينفي وجوده!، لذا من نفى عن الله جميع الصفات فهو مشبه له بالمعدومات، فمن قال : ليست له أي صفة = قلنا : لقد شبهته بالمعدومات .

فإن قال : أنا أنفي النفي و الإثبات ، فأنفي أن يكون حيا و أنفي أن يكون لا حياً .

قلنا : لقد شبهت ربك بالممتنعات فالذي يُرفع عنه النقيضان ممتنع، فشبهتم ربكم بما أشد العدم وهو الممتنع والعياذ بالله .

ثالثا: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر ، فمن أثبت لله تعالى القدرة و العلم لزمه إثبات باقي الصفات لأنه لا فرق بينها ، فمن أثبت الإرادة و السمع و نفى الرحمة، قلنا : أثبت الرحمة = فإن قال : الرحمة رقة القلب = قلنا: و الإرادة ميل القلب ، والسمع موجات صوتية تصل لآلة السمع = فإن قال: هذا سمع المخلوق = قلنا : و تلك رحمة

المخلوق، ورحمة الله مغايرة لرحمة المخلوقات، فكما قلت سمع الله لا كسمعنا، فقل رحمته لا كرحمتنا

رابعاً : أن هؤلاء المعطلة فروا إلى ما هو أشد مما توهموه ، فنفوا الصفات هربا من التشبيه بالموجودات ، ووقعوا فيما هو أشد منه ، فمن نفى الصفات الفعلية شبّه الله بالجمادات التي لا تفعل ، و من نفى جميع الصفات شبّه الله بالمعدومات .

خامساً : لا يمكن اجتماع النقيضين، فلا يمكن أن يكون الشيء موجودا معدوما في نفس الوقت؛ لذا يستحيل أن تماثل صفات الفقير المخلوق الناقص المسبوق بالعدم و الذي يلحقه العدم، بصفات الغني الكامل الخالق الأول الباقي؛ فإن هذا محال في العقول؛ فالنقيضان لا يجتمعان .

صفة العلو

أولا : أنواع العلو الثابت لله

١- علو الذات ٢- علو القدر ٣- علو القهر

و الخلاف بين أهل السنة و المعطلة وقع في علو الذات ، أي في فوقية ذات الله و مباينتها للمخلوقات التي تحته .

ثانياً: أدلة العلو

١- الكتاب و السنة ، و قد تنوعت أدلة الشرع في تقرير العلو:
-تارة بذكر العلو و الفوقية و الاستواء على العرش وكونه في السماء وذكر العنديّة مع الفوقية، مثل قوله تعالى: ((و هو العلي العظيم)) ، ((يخافون ربهم من فوقهم)) ، ((الرحمن على العرش استوى)) ، ((أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض)) و قال صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي".

- و تارة بذكر صعود و عروج و رفع الأشياء إليه، ونزولها من عنده ، وذكر نزوله سبحانه، مثل قوله تعالى : ((بل رفعه الله إليه)) ، ((تعرج الملائكة و الروح إليه)) ، ((إليه يصعد الكلم الطيب)) ، ((قل نزّله روح القدس من ربك)) ، وقال صلى الله عليه وسلم : " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر " .
و أنواع الأدلة من الكتاب و السنة في إثبات العلو أكثر من ذلك .

٢- الإجماع ، فقد أجمع السلف على إثبات العلو الذاتي لله تعالى ، فنقل ذلك الإجماع كثير من العلماء كالأوزاعي وإسحاق بن راهويه و قتيبة بن سعيد و غيرهم .

٣- الفطرة ، ففطر العباد مجبولة على الإقرار بعلو الله تعالى ، فتجدهم تتوجه قلوبهم و أبصارهم للعلو ، ويُقرّون بعلو الله ، بل حتى من فسدت فطرته فأنكر العلو، يقر بذلك بلسان الحال، و قد استدل الهمداني على الجويني بالفطرة لإثبات العلو كما في القصة المشهورة.

٤- العقل ، و أدلته كثيرة، منها أن يقال : الله إما أن يكون خلق الخلق خارج ذاته أو داخلها ، و لا يجوز أن يكون خلقه داخل ذاته فإن هذا كفر بالإجماع، و يستحيل اجتماع النقيضين، فالمخلوق المسبوق بالعدم لا يكون ذاته مجتمعه مع ذات الخالق الباقي ، فلزم أن يُقر بان الله خلق الخلق خارج ذاته ، فإذا ثبت ذلك، فكل مجودين منفصلين إما أن يكونا متساويين أو أحدهما يعلو الآخر، ولا شك أن العلو هو الكمال، فلزم إثباته .
و كذلك العلو صفة كمال، و كل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالله أولى به .

ثالثاً: أقوال المخالفين في صفة العلو وبعض شبهاتهم و الرد عليها

المذهب الأول : نفاة العلو المعطلة، الذين يقولون : الله لا داخل العالم و لا خارجه .
شبهتهم: إثبات العلو يقتضي أن الله في جهة، والله منزه عن الجهة لأن المتحيز في الجهة هو الجسم، والله ليس جسما

الرد :

١- الذي لا داخل العالم و لا خارجه هو العدم، فإن الدخول و الخروج نقيضان لا يمكن رفعهما، فإذا قلت : لا داخل، فيلزم أن يكون خارجاً ، و إذا قلت : لا خارج، يلزم أن يكون داخلاً، فيمتنع أن يوجد شيء لا داخل العالم و لا خارجه، لأن هذا يعني أنه خارج وليس بخارج وداخل وليس بداخل !! وهذا محال .

٢- قولكم أنه يلزم من العلو (الجهة) و (التجسيم) عليه جواب مجمل و آخر مفصل :

أما المجمل : فنثبت ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله – صلى الله عليه وسلم – كما يليق بجلال الله، ولا نلتفت للاصطلاحات الحادثة (كالجهة و الجسم)، فلم نُكلف بذا، ويكفينا أن نثبت ما جاء في الشرع ونقول لازم الحق حق، و هذا ما سار عليه الإمام أحمد في جوابه على برغوث حيث قال : " لقد جعل برغوث يقول الجسم وكذا وكلام لا أفهمه، فقلت: لا أعرف و لا أدري ما هذا، إلا أنني أعلم أنه أحد صمد لا شبه له ولا عدل، وهو كما وصف نفسه "

أما المفصل: فيقال لهم : ماذا أردتم بالجهة و الجسم ؟ إن أردتم أن الله تعالى حال في خلقه، أو أنه من لحم ودم أو من بدن كثيف مادي، أو غير ذلك من المعاني الباطلة، فنحن لا نثبت ذلك ولا يلزم من إثبات العلو هذا .

و إن أردتم أن الله تعالى فوق جميع خلقه، استوى على عرشه، كما يليق بجلاله، و أنه متصف بالصفات، فهذا المعنى حق، لكن هذا لا يسمى في لغة العرب جسماً، ولم يسمه الشرع بهذا، كما لم يرد الشرع بلفظ الجهة .

وقد أقر القرطبي – وهو أشعري – بإثبات السلف للجهة على المعنى الصحيح فقال : " قد كان السلف الأول – رضي الله عنهم – لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك،

بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى، كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة ... و إنما جهلوا كيفية الاستواء "

المذهب الثاني : أهل الحلول و الاتحاد، و هم على مراتب، وقد شاع هذا في عُبّاد الجهمية، فقالوا : الله في كل مكان – و العياذ بالله – وسيأتي ذكر بعض شبههم و الرد عليها عند الكلام عن (المعيّة) .

صفة الاستواء

أولاً : معنى الاستواء

الاستواء في اللغة إذا جاء مطلقاً ليس معه حرف، فمعناه الكمال و النضج و التمام، كقوله تعالى (ولما بلغ أشده و استوى ...) الآية، وكقول : استوى الطعام، أي نضج، واستوى الزرع و نحو ذلك .

و أما إذا جاء مقيداً فهو ثلاثة أنواع :

١- مقيد بحرف (إلى) كقوله تعالى ((ثم استوى إلى السماء)) وهذا بمعنى: القصد و العلو و الارتفاع .

٢- مقيد بحرف (على) ، كقوله تعالى ((و استوت على الجودي)) وهذا بمعنى: العلو والارتفاع .

٣- المقرونة بواو مع تعدي الفعل إلى المفعول معه، كقولنا : استوى الماء و الخشبة، فمعناه: المساواة .

و الاستواء الثابت لله تعالى كما في قوله ((الرحمن على العرش استوى)) معناه معلوم كما قال مالك، وقد قال ذكر السلف ألفاظا تشرح معناه، منها : العلو و الاستقرار و الصعود و الارتفاع، وغير ذلك .

ثانياً : أدلة الاستواء

قال تعالى : ((الرحمن على العرش استوى)) و قال ((ثم استوى على العرش)) .

ثالثاً : معنى العرش

هو سرير عظيم هو أعلى المخلوقات وسقفها، فوق الماء، له قوائم ، و تحمله الملائكة، كما جاءت الأدلة بذلك .

رابعاً : بعض شبهات نفاة الاستواء و الرد عليها

١- قالوا : يلزم من الاستواء الجهة و الجسمية و الحد و المكان .

الجواب : تقدم البيان عن لفظي (الجسم) و (الجهة) فراجعه . ويُقال في (الحد) كما قيل فيهما : ما تعنون بالحد ؟ إن كنتم تعنون أن الله تعالى بائن عن خلقه مستوي على عرشه، فهذا حق، ولذا أثبت الحد بهذا المعنى ابن المبارك و أحمد، بل حكى الدارمي الإجماع على إثباته بهذا المعنى، و إن كنتم تعنون أن عقولنا تحد وتحيط ذات الله ، فهذا معنى باطل، نفاه السلف وصرحوا بنفي الحد على هذا المعنى، كما جاء عن أحمد غيره ، ولا يلزم من إثبات الاستواء ذلك، لأننا نجهل كيفية الاستواء .

ويقال في (المكان) ما تعنون به ؟ إن أردتم به استواء الله و فوقيته فحق ولا إشكال، و إن أردتم أن الله حال داخل خلقه فهذا باطل، بل الاستواء ينافيه، لأنه يُثبت أن الله فوق أعلى المخلوقات وهو العرش .

٢- قالوا : لو كان الله – تعالى – مستويا على العرش لكان محتاجا له، ولكانت الملائكة حاملة لله تعالى ! .

الجواب: نعوذ بالله من مثل هذا القول ، واستواء الله تعالى لا افتقار فيه ، بل العرش و حملته مفتقرون لله تعالى، ولا يلزم أن يكون حمل الملائكة للعرش واستواء الله عليه أن يكون

الله تعالى محمولا محتاجاً، فلا يقول هذا مسلم، بل حتى المخلوقات منها ما يعلو بعض المخلوقات ولا يحتاج إليها، فكيف يكون ذلك لازما لفوقية الله على عرشه ؟!

قال ابن تيمية: " لانُسلّم أن من حمل العرش يجب أن يحمل ما فوقه إلا أن يكون ما فوقه معتمداً عليه، وإلا فالهواء و الطير و غير ذلك مما هو فوق السقف ليس محمولاً لما يحمل السقف، وكذلك السموات فوق الأرض وليست الأرض حاملة السموات، وكل سماء فوقها سماء، و ليست السفلى حاملة للعليا، فإذا لم يجب في المخلوقات أن يكون الشيء حاملاً لما فوقه، بل قد يكون و قد لا يكون، لم يلزم أن يكون العرش حاملاً للرب تعالى، إلا بحجة تبيّن ذلك ذلك"

٤- حرّف بعض أهل التعطيل معنى الاستواء فقالوا : هو الاستيلاء، واستدلوا على ذلك ببيت شعر يقول :

قد استوى بشر على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

<u>الجواب</u> : من وجوه :

أ- هذا مخالف لظاهر الآيات، و صرف اللفظ عن ظاهره بلا دليل غلط بيّن .

ب- هذا مخالف لسياقات نصوص الاستواء، فالله تعالى قال : (ثم استوى على العرش) و (ثم) تفيد الترتيب و التأخير ، فهل يصح أن يقال : (ثم استولى على العرش) ؟؟!! الله مستولي ومالك لجميع المخلوقات، ولا يقال : أنه خلق السموات والأرض ثم استولى وتملك العرش !!، بل الله لم يزل مستوليا على المخلوقات .

ج- هذا التأويل ليس معلوما في اللغة ، فقد نقل الهروي عن ابن الأعرابي إمام اللغة أنه قال : " أرادني أحمد بن أبي دؤاد أن أجد له في لغة العرب ((الرحمن على العرش استوى)) بمعنى: استولى ، فقلت : و الله ما أصبت هذا "

د – هذا مخالف لإجماع السلف ، و كتب العقيدة المسندة تطفح بنفي جنس هذه التأويلات و الإقرار بمعناه الصحيح.

مسألة : ما الفرق بين الاستواء و العلو ؟

الاستواء علو مخصوص، و لا يلزم من نفيه نفي مطلق العلو ، فالفرق بينهما:

١– الاستواء خاص بالعرش ، و العلو عام على جميع المخلوقات

٢–العلو صفة ذاتية ، و الاستواء صفة فعلية .

٣– العلو يدل عليه السمع و العقل و الفطرة ، أما الاستواء فصفة سمعية .

صفة المعيّة

أولاً : المعيّة في اللغة

تدل في اللغة على: مطلق المصاحبة و المقارنة، وهذه المصاحبة تختلف كيفيتها باختلاف السياق والإضافة و القرائن .

فقد يدل السياق على أنها مصاحبة مع اختلاط، مثل قول : وضعت الماء مع اللبن في الإيناء ، فهذا سياق يدل على أن (مع) هنا كانت مصاحبة مع اختلاط . و قد يدل السياق على عدم الاختلاط، كقول : سرنا و القمر معنا ، فالقمر في الأعلى وليس مختلطاً مع السائر.

ثانياً : أدلة صفة المعيّة

دلت نصوص الكتاب و السنة على إثبات المعية لله – تعالى – فمن الكتاب ، قوله تعالى : ((و هو معكم أينما كنتم)) وقوله ((و أنّ الله مع المؤمنين)) وقوله ((لا تحزن إن الله معنا)) ، ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت " ، فالإيمان معية الله تعالى من أفضل الإيمان .

ثالثا: أقسام معية الله تعالى لخلقه

١- معية عامة ، تتضمن العلم و الإحاطة ، فالله مع جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم عالم بأحوالهم، وهي المذكورة في قوله تعالى : ((و هو معكم أينما كنتم)) .

٢- معية خاصة ، تتضمن النصر و التأييد والمحبة، فالله ينصر ويؤيد ويحب أهل الخير و الصلاح ومن اتصف بالصفات الحميدة، لذا يذكر الله أنه مع أشخاص من المؤمنين، كما قال عن النبي صلى الله عليه وسلم و أبي بكر ((لا تحزن إن الله معنا)) ، ويذكر أنه مع من اتصف بصفات حميدة كالتقوى و الإحسان ، قال تعالى ((إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون))

رابعاً : أقوال المخالفين في صفة المعية، وأبرز شبهة لهم، و الرد عليها

المذهب الأول : نفاة المعية.

المذهب الثاني : الذي أثبتوا المعية على وجه الحلول، فقالوا : الله في كل مكان .

شبهتهم : قالوا : (المعية تقتضي أن يكون الله مختلطاً بخلقه، حالا بهم) فالحلولية أثبتوا ذلك وقالوا : الله في كل مكان، و نفوا أن يكون مبياناً للخلق في العلو، و النفاة لم يثبتوا الحلول وظنوا أن المعية تقتضيه فنفوا المعية .

الجواب : أن المعية لا تقتضي الحلول و الاختلاط ، فهي في اللغة مطلق المقارنة و المصاحبة، لذا قد يُقال : هذا الشيء مع هذا الشيء ، ومع ذلك لا يكون مختلطاً فيه، كقولنا : سرنا و القمر معنا ، و قولنا : الطائرة مع الجيش، فالقمر في العلو و الطائرة كذلك، ليسا مختلطين بالسائر و الجيش وهما في الأرض، فإذا كان هذا في حق المخلوق فيكيف يُقال : أن معية الله تقتضي الحلول و الاختلاط؟! . و لهذا ردّ السلف على من زعم أن المعية تقتضي الحلول (كحلولية الجهمية) وبينوا أنه لا تعارض بين العلو و المعية .

صفة النزول

أولا: إثبات صفة النزول وأدلته

النزول صفة اختيارية فعلية ، أثبتها السلف بلا الكلام في كيفيته، و بلا تشبيه، فالله ينزل لا كنزولنا .

- و دل على النزول الكتاب ، و السنة المتواترة ، و الإجماع

فأما الكتاب فقد دلت عدة نصوص على إثبات النزول بدلالة الالتزام و التضمن، فقد ذكر الله تعالى المجيء و الإتيان فصل القضاء فقال (وجاء ربك)، وقال (هل ينظرون إلا أن ياتيهم الله في ظلل من الغمام و الملائكة) و في الآية الأخرى أخبر أنه إتيان نزول فقال : ((ويوم تشقق السماء بالغمام و نزّل الملائكة تنزيلاً)) و الإتيان من العلو هو يكون إتيان نزول، وقد ثبت علو الله تعالى على خلقه، ولذا استدل السلف بآيات المجي و الإتيان يوم القيامة على النزول، لأنه إن ثبتت فوقية الله تعالى، فآيات المجيء تدل على نزوله، لهذا استدل إسحاق بن راهويه بهذه الآيات في المناظرة التي جرت في مجلس الأمير بن طاهر، إذ قال أحدهم : يا أبا يعقوب أتزعم أن الله ينزل كل ليلة؟ ، قال : نعم ، قال: وكيف ينزل ؟ ، قال إسحاق: أثبته فوق حتى أصف لك نزوله، فقال الرجل: أثبته فوق، فقال إسحاق : قال الله عز وجل (و جاء ربك و الملك صفاً صفاً) فقال الأمير : يا أبا يعقوب هذا يوم القيامة، فقال إسحاق : أعز الله الأمير و من يجيء يوم القيامة من يمنعه اليوم ؟ " ، وقد جاء في رسالة أبي بكر الإسماعيلي لأهل جيلان الاستدلال على النزول بآيات المجيء و الإتيان، وكذا فعل ابن مندة وغيره، فاعرف هذا فإنه جليل، و هو يدل على القاعدة التي تقول : أن الصفات تثبت بدلالة التضمن و الالتزام و المطابقة ، و يدل على أن السلف لم يكونوا مفوضة بل يعلمون معاني الصفات، وإلا ما صح أن يستدل بذلك، فلا يعقل أن يقول : المجيء الذي لا أعرف معناه يدل على النزول الذي لا أعرف معناه !!! . لا يستدل هذا الاستدلال إلا عالم بالمعنى .

وذكر سبحانه الاستواء و الصعود، و هذا فيه إثبات للنزول، لذا قال يحيى بن معين: " إذا قال لك الجهمي: كيف نزل ؟ فقل : كيف صعد ؟ " .

وأما السنة فهي تدل عليها دلالة مطابقة متواترة، فأحاديث النزول متواترة رواها ثلاثة و ثلاثون صحابياً، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " ينزل ربنا تبارك و تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له " متفق عليه، جاء من اثني عشر طريقاً .

و أما الإجماع فقد حكاه غير واحد من أهل العلم ، فقال حرب الكرماني : " و أجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا على ما أتت به الآثار، كيف شاء "

ثانياً : تأويل المعطلة لأحاديث النزول و الرد عليها

أنكرت المعطلة صفة النزول، بناءً على أصولهم الفاسدة في معنى التمثيل، وفي نفيهم الصفات الاختيارية التي يسمونها (حلول الحوادث) ، ثم ذهب بعضهم لتحريف معنى حديث النزول، فقال المراد : نزول رحمة الله، أو نزول أمره، أو نزول ملك من الملائكة .

و الرد على هذه التحريفات فيما يلي :

١- أن ظاهر الحديث هو نزول الله، ولا يجوز تحريف هذا و تقدير الحذف في الحديث بالهوى، كما أن الحديث لا يمكن أن يكون في نزول مخلوق من المخلوقات – كالملائكة –، لأن في الحديث قوله سبحانه : " من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له " وهذا لا يقوله مخلوق، وفي رواية أخرى أن الله قال: " لا أسأل عن عبادي غيري " .

٢- أن يقال : هل أمر الله و رحمته صفة له أم لا ؟ إن قالوا نعم : قيل نزول الصفة المتعلقة بالموصوف – كالرحمة – يلزم منه عدم منع نزول الموصوف و القول بنزوله . و إن قالوا : لا ، نقصد بأمر الله و رحمته، أي مأموراته المخلوقة و رحمته المخلوقة، فهذا لا

يمكن لما تقدم في الرد رقم (١) حيث تبين أن الحديث لا يمكن أن يكون في نزول مخلوق، كما أن ملائكة الله و رحماته المخلوقه تتنزل في كل وقت، وليس في السحر خاصة .
– لهذا كان السلف يثبتون نزول الله حقيقة، و لذا قال أحمد : " نؤمن بالقرآن كله محكمه و متشابهه، و لا نزيل عنه تعالى صفة من صفاته بشناعة شُنّعت، و لا نزيل ما وصف به نفسه من : كلام، و نزول ، و خلوّه بعبده يوم القيامة، و وضعه كنفه عليه، هذا كله يدل على أن الله يُرى في الآخرة " فأحمد جعل النزول دليل على الرؤية، وهذا يعني أنه نزول الله، و أنه يعلم معاني هذه الصفات ولا يفوضها .

و ذكر أحمد آيات الإتيان و المجيء ثم قال :" فمن قال إن الله لا يُرى فقد كفر "، فاستدل بالإتيان على رؤية الله و هذا يدل أنه إتيان ذاته سبحانه ومجيئها ، وقد تقدم أن الإتيان والمجيء لفصل القضاء يدلان على النزول .

مسألة : النزول يدل على العلو، لذا قال ابن عبد البر المالكي عن حديث النزول: " فيه دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة " وكلامه دليل على عدم تفويض السلف لمعاني الصفات أيضا.

صفة الكلام

أولاً : إثبات صفة الكلام و أدلة ذلك

أثبت أهل السنة الكلام لله تعالى، و أن سبحانه تكلم بحرف و صوت ، و أنزل الكتب، و أوحى إلى الرسل .

وصفة الكلام ذاتية باعتبار النوع: أي أن الله لم يزل متكلماً ولا يُقال أن الكلام كان ممتنعا عليه ثم تكلم، بل الله لم يزل متكلما، و يتكلم، و سيتكلم .

و الكلام صفة فعلية باعتبار آحاد الكلمات : أي الكلمات المعينة هي فعليه تكلم الله بها بعد المشيئة، فقال لآدم (كن) بعد أن أراد ذلك، ولم يقل له كن قبل ذلك . فالله يتكلم متى شاء بما شاء .

أما أدلة صفة الكلام، فدل عليه: الكتاب و السنة و الإجماع و العقل و الفطرة

فأما الكتاب، فالآيات في إثبات الكلام كثيرة، كقوله تعالى (و كلّم الله موسى تكليماً).

و أما السنة فالأحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه و بينه ترجمان، و لا حجاب يحجبه " .

وأما الإجماع فهو مستفيض عند أهل السنة، وقد حكاه جمع غفير.

و أما الفطرة و العقل ، فالكلام صفة كمال و الله أولى بالكمال، لذا كانت فطر العباد مقرّه على إثبات الكلام لله تعالى، و أن عدم الكلام نقص، لهذا أنكر الله على من عبد العجل بقوله : ((ألم يروا أنه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلاً)) و استدل إبراهيم عليه السلام على فساد آلهة قومه بعدم تكلمها، و أقر قومه بهذا النقص، وأن فقدان الكلام لا يكون للكامل ، قال تعالى مخبرا عن فعلهم بعد أن هدم إبراهيم عليه السلام أصنامهم :((قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم* قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون* ثم نُكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)) .

ثانياً: أنواع كلام الله

١- كلمات شرعية، يأمر الله بها وينهى عباده المكلفين، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة)
٢- كلمات كونية قدرية، يخلق الله بها ويدبر، كقوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)

ثالثاً : أبرز الأقوال المخالفة لأهل السنة في صفة الكلام، و الرد عليها إجمالاً .

اعلم أن الخلاف في صفة الكلام كثُر بين أهل السنة و المخالفين، بل قيل أن علم الكلام سُمي بذلك لأن المتكلمين أول ما تكلموا فيه وخالفوا الحق هو كلامهم في صفة الكلام،

ولعل الأقوال المخالفة ترجع إلى ثلاثة أسئلة، نذكرها و نذكر القول الحق فيها والرد على المخالف إجمالاً :

السؤال الأول : هل الكلام صفة لله تعالى اتصفت بها ذاته المقدسة أم لا ؟

الجواب : نعم ، وهذا قول أهل السنة و من أثبت صفة الكلام .

و خالف في ذلك من قال بخلق الكلام، كالجهمية و من تبعهم كالمعتزلة ، فقالوا : الكلام مخلوق ، و نحن نقول كلام الله من باب قول : ناقة الله و بيت الله ، فهذه مخلوقة، و الكلام المضاف لله مخلوق، أضافه الله إليه إضافة تشريف .

و الرد عليهم : أن هذا جهل باللغة ، فهم لم يفرقوا بين إضافة الأعيان و بين إضافة المعاني و الصفات .

فهناك فرق بين قولك : هذا بيتي و هذه سيارتي ، وبين قولك : هذا كلامي وهذا سمعي ، فالبيت و السيارة أعيان فإضافتها لك ليست كإضافة الصفات (السمع و الكلام) ، فإضافة الأعيان تكون إضافة ملك و غيره لا إضافة اتصاف ، و أما إضافة، لا تكون إلا لاتصافك بتلك الصفات ومن لم يفرق بين هذا كان جاهلا باللغة ! .

فالناقة و البيت غير الكلام و السمع و البصر، ولذا إذا قلت هذا كلام الله و سمع الله لا يمكن أن يُفهم أنه مخلوق.

وقد ذكروا عدة شبهة على القول بخلق الكلام .

الشبهة الأولى : قالوا الكلام شيء ، والله تعالى قال (الله خالق كل شيء) فالكلام مخلوق .

الجواب : هذا جهل بفهم اللغة ، ألم يقل الله تعالى عن بلقيس ((وأوتيت من كل شيء)) و ملك سليمان وعرش الله شيء ، فهل أوتيت عرش الله وملك سليمان ؟! الجواب لا .

ألم يقل الله تعالى عن الريح التي أرسلها لقوم عاد : ((تدمر كل شيء بأمر ربها)) و عرش الله والسماء والأرض أشياء، فهل دمرتها الريح ؟ الجواب لا ، بل حتى مساكن عاد ما أفنتها الريح ، قال تعالى ((فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم)) .

و ذلك أن ما يدخل في قول (كل) في اللغة، يختلف باختلاف السياق و المتكلم و القرائن، فقول المعلم لتلاميذه كل الطلاب ناجحون: لا يعني أن جميع طلاب العالم في جميع المواد كذلك، بل يقصد طلاب مادته .

و المراد من قوله تعالى ((الله خالق كل شيء)) أي خالق كل شيء مخلوق، و كلام الله ليس من الخلق بل به يخلق الله الخلق ، ولذا فرّق تعالى بين الخلق و الأمر فقال : ((ألا له الخلق و الأمر)) .

الشبهة الثانية : أن الله تعالى قال ((إنا جعلناه قرآناً عربياً)) و الجعل هو الخلق .
الجواب : أن الجعل قد يأتي بمعنى الخلق، و قد يأتي بمعنى غير الخلق بل بمعنى التصيير ، كما قال تعالى عن المشركين : ((و جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً)) هل المشركين خلقوا الملائكة ؟! الجواب لا ، فالجعل قد يأتي بمعنى غير الخلق .

و القائلون بخلق القرآن لهم في ذلك شبه كثيرة، و لكن اعلم أن أصل فسادهم ليس أنهم أخطأوا في فهم مثل تلك الآيات، بل هو أنهم ظنوا أن إثبات صفة الكلام يقتضي التشبيه و النقص ، فزلوا بسبب العقل الفاسد .

السؤال الثاني: هل كلام الله تعالى متعلق بالإرادة ؟ (هل كلام الله يتجدد أم هو شيء واحد في الأزل ؟)

الذي عليه أهل السنة أن الله يتكلم متى شاء ، فيتجدد كلامه سبحانه، فالله تكلم ويتكلم وسيتكلم ، قال تعالى ((قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)) ، فكلمات الله لا تنتهي ، و مما يدل على ذلك :

١- أن الله ذكر أنه سيتكلم في المستقبل، و أنه يتكلم بعد الإرادة، قال الحافظ السجزي : " قال تعالى ((يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)) فقد حَسُن في القول ذكر المستقبل، فإن ارتكبوا [أي : الأشعرية ومن وفقهم] العظمى ، وقالوا: كلام الله شيء واحد على أصلنا لا يتجزأ وليس بلغة، و الله سبحانه من الأزل إلى الأمد متكلم بكلام واحد، لا أول له ولا آخر ... قيل لهم : قد بينا مراراً كثيرة أن قولكم هذا فاسد، و أنه مخالف للعقليّين و الشرعيّين جميعا، و أن نص الكتاب و الثابت من الأثر قد نطقا بفساده، قال تعالى : ((إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)) فبيّن سبحانه أنه يقول للشيء (كن) إذا أراد كونه، فعُلم أنه لم يقل للقيامة بعد كوني "

٢- أخبر الله تعالى عن أمور ماضية في كتابه، فقال ((قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)) فدل أن الله تكلم بهذه الآية بعد قولها و سماعه، و لو قال ((قد سمع الله)) قبل أن تتكلم و قبل أن تُخلق ، لكان كذباً والله تعالى منزه عن الكذب ، فكان ذلك دليلاً على أن الله يتكلم متى شاء .

صفة الحياة

لله تعالى صفة الحياة، وهي صفة ذاتية ، دل عليها الكتاب و السنة و العقل و الإجماع .

أما الكتاب ، فقال تعالى : ((و توكل على الحي الذي لا يموت)) و ((الله لا إله إلا هو الحي القيوم))

ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ... أنت الحي الذي لا يموت و الجن و الإنس يموتون "

و أما دلالة العقل، فتقدم أنه يدل على اتصاف الله تعالى بالخلق و العلم و القدرة و الإرادة وهذه لا تكون إلا مع الحياة .

قال الهراس:" معنى الحي : الموصوف بالحياة الكاملة الأبدية، التي لا يلحقها موت و لا فناء ، لأنها ذاتية له سبحانه، و كما أن قيوميته مستلزمة لسائر صفات الكمال الفعلية، فكذلك حياته مستلزمة لسائر صفات الكمال الذاتية " .

صفة الغضب

الغضب من الصفات الفعلية الاختيارية، و هو غضب يليق بالله لا يشبه غضب المخلوقات ولا نعرف كيفيته .

الأدلة:

من الكتاب قوله تعالى : ((و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها و غضب الله عليه ولعنه)) و قوله: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم)) و من السنة ما جاء في الحديث القدسي: "إن رحمتي غلبت غضبي" وهذا من كمال غضبه سبحانه، فالغضب يكون كمالا إن غلبته الرحمة ، وفي حديث الشفاعة : " ... إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله "، وما يقع للمكذبين من المثلات أيضا دليل على غضب الله تعالى .

مذهب المخالفين والرد على بعض شبههم في صفة الغضب

أوّل كثير من المتكلمين الغضب إلى إرادة الانتقام أو الانتقام ، و زعموا أن إثبات الغضب لله تعالى نقص لأن الغضب غليان في الدم ، و ثوران في القلب .

الجواب :

١- أن هذا تأويل يخالف الظاهر ، فهناك فرق بين الغضب و الانتقام و إرادة الانتقام في لغة العرب، كما أن الانتقام أثر من آثار الغضب وليس هو الغضب ، ولذا فرّق الله بين الغضب و الانتقام، فقال : ((فلما آسفونا انتقمنا منهم)) و معنى آسفونا : أغضبونا ، فجعل الله الغضب سابق للانتقام و الانتقام أثر له، و كذلك الغضب قد يكون دون وجود الانتقام، فيقال عن الشيء (غضبان)و إن لم ينتقم أو لم يرد الانتقام .

٢- أما القول بأن الغضب هو ثوران القلب وغليان دمه ، فهذا ليس هو الغضب و إنما هو شيء يلازم غضب الإنسان، مثل حمرة الوجه ليست هي الغضب ولكنها تلازمه عند الإنسان إذا اشتد ، و حتى لو قيل هو الغضب فهو غضب الإنسان المخلوق ، و غضب الله ليس كغضبنا ، فكما أن سمعنا عبارة عن موجات صوتية تدخل آلة السمع ، و بصرنا عبارة عن انعكاس الضوء على أعيننا ، و إرادتنا يلزم منها ميل القلب ، ومع ذلك علم الله و إرادته وسمعه وبصره ليس كما هي عند مخلوقاته ، فكذلك غضبه ليس كغضب مخلوقاته .

و الغضب صفة كمال لا نقص، فلو قدرنا أن هناك موجودين أحدهما لا فرق عنده بين الفساد و الصلاح ولا يغضب من القبيح ، والآخر يحب الصلاح ويغضب من الفساد، لكان الثاني أكمل من الأول ، لأن من لا يغضب من الفساد و القبح ناقص ، لذا الفطرة تذم من لا يغضب من القبيح كالديوث و المعاون للظالم ونحوهم .

صفة اليدين

اليدان من الصفات الذاتية الثابتة لله تعالى على الوجه الذي يليق به سبحانه، و لا نعلم كيفيتها، و هي مبسوطتان بالعطاء و النعم ، بها يقبض – سبحانه – ويبسط ويطوي و غير ذلك من الأفعال التي تتعلق بها .

الأدلة :

من الكتاب ، قوله تعالى : ((بل يداه مبسوطتان)) وقوله لإبليس ((ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ))

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : " يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبّارون ؟ ..." ، و قد أجمع أهل السنة على إثبات هذه الصفة لله تعالى .

بعض تأويلات أهل البدع و الرد عليها

حرّف بعض أهل البدع معنى اليد ، فقالوا : القدرة ، أو : النعمة ، أو : القوة .

الجواب : هذا مخالف للظاهر ، ومجموع أدلة صفة اليد و سياقاتها لا يكمن أن تحتمل هذا التحريف .

فقد جاءت الأدلة من الكتاب و السنة بذكر أن الله يمسك بيده السموات و الأرض و يطوي و يقبض و يبسط و يخلق بعض خلق بهما ، ويكتب، وذكر الأصابع، و غير ذلك مما لا يدع مجالاً للشك أن المراد باليد هو المعنى الحقيقي ، فهذه الأفعال و الأخبار لا تتناسب مع تلك التحريفات .

كذلك ذكر الله تعالى اليد بالتثنية ، و أنه منّ على آدم و اختصه من بين سائر الخلق بأن خلقه بيديه ، فلا يمكن أن يقال أن اليد هنا بمعنى القدرة أو القوة أو النعمة ، لأنه لا يصح أن يقال لله قدرتين ولا قوتين !! بل له قوة كاملة وقدرة كاملة ، كما أن الله لم يخلق آدم بنعمتين فقط ، بل بنعم كثيرة ، ثم كل الخلق خلقهم الله بقوته وقدرته وكلهم أسبغ عليهم نعمه ، فالكلاب و الخنازير وغيرها خلقها الله بنعمته و قوته وقدرته ، فأي مزيّة وخصيصة لآدم إذا قيل أن الله خلقه بقوته و نعمته و قدرته ؟!!!! ، فدلت الآية أن الله اختص آدم بأنه خلقه بيديه الذاتيتين ، فلما قال الله لإبليس ((ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي)) لم يرد سبحانه القوة أو القدرة ، لأن إبليس كذلك خُلق بقدرة الله و قوته و أنعم الله على إبليس بنعم دنيوية .

قال أحمد بن حنبل : " من زعم أن يده نعماه كيف يصنع بقوله ((خلقت بيديّ)) مشددة ، و " حين خلق آدم فقبض" يعني من جميع الأرض، و " القلوب بين أصبعين " ؟! " انتهى .

فاستدل أحمد بمجموع الأدلة وسياقاتها على نفي التحريف ، لأنها لا تحتمله ، وهذا فيه أن السلف لم يكونوا مفوضة، لأنه لا يصح أن يستدل بما لا يعرف معناه على نفي تفسير ما لا يعرف معناه !!! .

الرؤية

أهل السنة أجمعوا على إثبات رؤية الله تعالى عياناً ، كما دل على ذلك الكتاب و السنة .

أما الكتاب فقوله تعالى : ((وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)) فأضاف النظر إلى الوجه و عدّاه بـ (إلى) وهذا يقطع كل تأويل ، وقال تعالى : ((لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)) وقال : ((لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)) وجاء في الأثر تفسير المزيد و الزيادة بالنظر إلى الله تعالى . وقال تعالى ((كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)) فلما حجب الله المجرمين دل مفهوم المخالفة على رؤية المؤمنين لربهم .

أما السنة ففي الحديث : " إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته ..." و قوله (كما ترون القمر ليلة البدر) تشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي .

قال الذهبي :" أما رؤية الله عيانا في الآخرة: فأمر متيقن، تواترت به النصوص "

بعض مذاهب المخالفين والرد على بعض أباطيلهم

المذهب الأول : نفاة الرؤية ، الذين قالوا الله يستحيل أن يُرى من المعتزلة و الجهمية وغيرهم .

و هؤلاء زعموا أن إثبات الرؤية يستلزم الجهة التي هي من لوزام الأجسام، ثم ذهبوا يستدلون بآيات منها قوله تعالى لموسى : ((لن تراني)) ، وقوله : ((لا تدركه الأبصار))

الجواب : من أوجه :

أولا : تقدم الكلام عن لفظة الجسم و الجهة ، و أن مثل هذه الألفاظ التي لم ترد في الكتاب و السنة ويدخلها الإجمال، لا ينبغي أن تتخذ حجة لرد الحق ، ونحن لسنا متعبدون بها ، و إن أردتم بها أن الله له ذات و صفات و أنه يُرى فهذا حق، و لكن هذا لا نسيمه تجسيما، ولا هو في لغة العرب كذلك، و إن أردتم أن الله يماثل خلقه فهذا باطل، و إثبات الرؤية لا يلزم منه ذلك .

ثانيا : رد استدلالهم بقوله تعالى ((لن تراني)) على نفي الرؤية :

١- (لن) في لغة العرب لا تفيد التأبيد ، فهذا النفي في الدنيا لا الآخرة .

٢- هذه الآيات فيها أن موسى سأل الله تعالى الرؤيا ، فهل موسى – عليه السلام – كان جاهلا بربه ويسأله ما هو تجسيم ونقص لله تعالى و أنتم أعلم منه ؟!!! و لماذا لم ينكر الله على موسى سؤاله ؟! فهذا دليل ضدكم .

٣- أن الله علّق الرؤية على شيء ممكن فقال : ((وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)) فاستقرار الجبل ممكن ، و ما عُلّق على ممكن فهو ممكن ، فدلت الآية على إمكان الرؤية، ولكنها لا تكون في الدنيا لضعف أبصارنا.

ثالثاً : رد استدلالهم بقوله تعالى : ((لا تدركه الأبصار)) على نفي الرؤية :

١- أن الإدراك شيء زائد على الرؤية فهي رؤية مع إحاطة ، ولذا يصح أن تنفي الإدراك مع إثبات الرؤية، فتقول : رأيت الشيء ولم أدركه ، فنحن نرى السماء ولا ندركها لكبرها، فالآية نفت الإدراك لأن الله لا يحيط به أحد من خلقه ، و لم تنف الرؤية ، فالله يرى ولا يُدرك سبحانه ، بل نفي الإدراك قد يدل على إثبات الرؤية، لأن نفي الخاص يُشعر بإثبات العام، فلو أراد الله نفي الرؤية لكن نفي مطلق الرؤية أوضح من نفي الإدراك .

٢- على القول بأن الإدراك هو الرؤية، فهذه الآية نفت الرؤية في الدنيا، والأدلة الأخرى صريحة في إثباتها في الآخرة.

المذهب الثاني : الذين أثبتوا الرؤية مع نفي العلو ، فقالوا : يرى لا في جهة ، كما قالت الأشعرية .

وهؤلاء أثبتوا الرؤية لكنهم وقعوا في تناقض مع مذهبهم الذي ينفي علو الله تعالى إذا من لوزام رؤية الله إثبات عليه، فالرؤية بلا ملاقاة و مقابلة ممتنعة !! .

و لذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يرى كما يرى القمر ، و القمر يرى من أعلى ، كما ذكر الله تعالى الملاقاة فقال : ((الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ)) قال الآجري : " ... عند أهل العلم باللغة أن اللقاء ها هنا ... لا يكون إلا بمعاينة، يراهم الله ويرونه " ، و أدلة إثبات الرؤية و العلو كثيرة ، فالتفريق بينهما خطأ .

و لذا لما وقع هذا التناقض عند من أثبت الرؤية و أنكر العلو ، شنع عليهم أهل السنة ، و كذا المعتزلة ، لأنهم تناقضوا في قولهم ، حتى إن بعض الأشعرية المتأخرين لما أدركوا هذا التناقض أولوا الرؤية بالرؤية القلبية، فرجعوا إلى قول المعتزلة أو قريب منه .و هذا التناقض جعل هذا القول من الأقوال التي تخالف صريح العقول ، وصحيح الفطر.

المذهب الثالث : مذهب بعض الصوفية الذين يزعمون أنهم يرون الله في الدنيا ، أو أصحاب وحدة الوجود القائلون أن كل شيء هو الله ، أو النصارى الذين يزعمون أن الإله تجسد في صورة المسيح فرأوه .

وهذا معلوم البطلان بالضرورة ، فليس هؤلاء الصوفية بأفضل من موسى- عليه السلام -، و قد قال صلى الله عليه وسلم : " تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه – عز وجل – حتى يموت ".

فائدة : الله قد يُرى في المنام لكن رؤية غير حقيقية ، بل تكون من الأمثال المنامية، مثل أن يقال : من رأى ربه بصورة حسنة فتفسير منامه أنه صالح في الدين ، لا أنه رآه حقيقة.

توحيد القصد و الطلب

وهو طلب الله و قصد و إرادة رضاه ، فيتوجه العبد بقلبه و جوارحه إلى ربه بالعبادة، خالصاً له .

و يسمى أيضاً : توحيد الإلهية ، و توحيد العبادة ، و التوحيد العلمي ، وذلك لأنه يريد و يقصد إخلاص العبادة لله، فيتقرب إلى الله — تعالى — بالعبادة .

و العبد فيه قوتان : قوة علمية و قوة عملية ، و العملية لا تكون إلا عن علم ، لذا إذا عرف العبد ربه و علم صفاته (توحيد المعرفة والإثبات) يتوجه إليه بإخلاص العبادة له قاصداً بذلك وجهه (توحيد القصد و الطلب) .

تعريفه توحيد القصد و الطلب (توحيد الإلهية) هو : إفراد الله — تعالى — بالعبادة .

أما علاقته بالشهادة (علاقة مطابقة) فمعنى (لا إله إلا الله) لا معبود بحق إلا الله، فالشهادة تدل على توحيد القصد و الطلب (الإلهية) بالمطابقة ، و تدل على توحيد المعرفة و الإثبات (الربوبية و الأسماء والصفات) بالتضمن .

أهمية توحيد الإلهية

دل على أهمية توحيد القصد و الطلب عدة أمور، منها :

١- هو الغاية من خلق الخلق، قال تعالى : ((و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون))

٢- من أجله بعث الله الرسل ، قال تعالى : ((و لقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت))

٣- هو حق الله على العباد ، كما في حديث معاذ مرفوعاً : " حق الله على العباد ألا يشركوا به شيئاً "

٤- هو أول واجب على المكلف، و أول ما يُدعى إليه الناس، ففي حديث معاذ لما بعثه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى أهل اليمن قال : " فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله " و في رواية " عبادة الله " .

٥- أنه شرط قبول الأعمال، قال تعالى : ((وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ))

٦- هو طريق الخلود في الجنة ، و تركه طريق الخلود في النار ، فبه تحصل السعادة الأبدية، و في تركه الشقاء الأبدي.

من فضائل توحيد الإلهية :

١- به تحصل عصمة الدم، قال – صلى الله عليه وسلم - : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله و نفسه إلا بحقها و حسابه على الله "

٢- أنه إذا كمل حرّم الله صاحبه عن النار، كما في حديث عبتان يرفعه : " فإن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله "

٣- أنه يُكفّر الذنوب، ففي الحديث القدسي : " يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة ولا أبالي "

٤- أنه شرط لقبول الشفاعة ، فالله أخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بعد إذنه ورضاه ، قال تعالى : ((و لا يشفعون إلا لمن ارتضى)) و الله لا يرضا عن الشرك، قال تعالى : ((و لا يرضى لعباده الكفر)) ، لذا لا شفاعة لتارك التوحيد كما قال تعالى : ((ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع))

٥- أنه طريق الحياة الطيبة، قال تعالى : ((مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

٦-هو سبب لحصول الأمن والهداية،قال تعالى:((الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ))

منهج القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلهية

تنوعت أساليب القرآن في الدعوة لتوحيد الإلهية، فمن ذلك :

أولا : الأمر بالتوحيد و مكملاته، و النهي عن الشرك و منقّصات التوحيد، كقوله تعالى : ((و اعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً))

ثانياً : الإخبار بحال الموحدين في الآخرة وما لهم من نعيم، وبحال المشركين وما لهم من عذاب أليم، كقوله تعالى : ((إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ))
ثالثاً : ذكر الأدلة العقلية الدالة على توحيد الإلهية ، وبطلان الشرك فيه ، ومنها :

١- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية

٢- الاستدلال بتوحيد الأسماء و الصفات على توحيد الإلهية .

و الاستدلال بالربوبية و الأسماء و الصفات على توحيد الإلهية دليل عقلي ، لأن إثبات الربوبية و الكمال لله يلزم منه إثبات العبادة لله وتوحيده بها؛ لأن العبادة مبنية على كمال الحب وكمال الذل ، وهما لا يُصرفان إلا لمن بيده النفع و الضر، ولمن له الكمال ، لأنه المحبة تنشأ من العلم بما هو كامل ومن العلم بما هو نافع، فترغب النفس بالخير، و الذل ينشأ من الرهبة من الضر و توقي الشر ، و الله هو الكامل في نفسه المتصرف بكل شيء، فلزم صرف كمال الحب و الذل له .

وأيضاً: فكل إنسان له إرادة و قصد، فلزم وجود مقصود مراد ينتهي إليه لتحصيل المطلوب حتى تستقر نفسه، و توجه الإنسان لمفتقر مثله في كل الأمور لا يحصّل مطلوبه، لأنه لا يزال يطلب حتى تنتهي الغاية إلى غني، و إلا لزم التسلسل، و التسلسل في العلل الغائية أشد استحالة من تسلسل العلل الفاعلة، وكذا الدور فيها، كما ذكر ابن تيمية

ومن أمثلة هذا الاستدلال في القرآن، قوله تعالى : ((رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)) ففي هذه الآية استدلال بتوحيد الأسماء و الصفات و بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية .

٣- الاستدلال بضرب الأمثال، إذ الأمثال تقرّب المعنى إلى العقل وتصوره بصورة المحسوس، وفي هذا أثر عظيم، على النفس، ومن الأمثال المضروبة في هذا الباب ما يلي :

أ- أمثال متعلقة بالمقارنة بين الله ماله من كمال، وبين المعبودات الأخرى وما فيها من نقص، كما في قوله تعالى : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)) قال مجاهد : " ضرب الله هذا المثل، والمثل الآخر بعده لنفسه، والآلهة التي تعبد من دونه "

ب- أمثال متعلقة بالمقارنة بين التوحيد و حُسنه، و الشرك و قبحه، كما في قوله تعالى : ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ))، فالكلمة الطيبة هي التوحيد، و الخبيثة هي الشرك .

ج – أمثال متعلقة بالمقارنة بين الموحد وصلاح حاله ، و المشرك وفساد حاله كما قال تعالى : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))، يقول الطبري : " مثّل الله مثلا للكافر بالله الذي يعبد آلهة شَتَّى، ويطيع جماعة من الشياطين، والمؤمن الذي لا يعبُد إلا الله الواحد، يقول تعالى ذكره: ضرب الله مثلا لهذا الكافر رجلا فيه شركاء. يقول: هو بين جماعة مالكين متشاكسين، يعني مختلفين متنازعين، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رجل شكس: إذا كان سيئ

الخلق، وكل واحد منهم يستخدمه بقدر نصيبه ومِلْكه فيه، ورجلا مسلما لرجل، يقول: ورجلا خُلُوصا لرجل يعني المؤمن الموحد "

د – أمثلة متعلقة ببطلان عبادة آلهة المشركين و عجزها ، وذلك بذكر اتصاف تلك الآلهة بالنقائص، وفقدانها للكمال، كما قال تعالى : ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ))

٤– الاستدلال بالمَثُلات التي حصلت للأقوام المشركة، وما حصل من التمكين و النصر للموحدين، وعاقبة كل منهما ، كما قال تعالى : ((قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ)).

٥– قطع أصول الشرك و تبريرات المشركين ، كما قال تعالى : ((قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ))

قال ابن القيم : " وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فقال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ} . فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده، فنفى –سبحانه– المراتب الأربع نفيا مرتبا منتقلا من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه. فكفى بهذه الآية

نورا وبرهانا وتجريدا للتوحيد وقطعا لأصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنه في نوع وقوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثا، فهذا هو الذي يحول بين القلب وفهم القرآن " انتهى .

رابعاً : ذكر أهمية التوحيد وفضائله ، فالقرآن جاء بذلك -كما تقدم - ، وهذا من الدعوة إلى التوحيد .

الأصل في بني آدم التوحيد، و الشرك طارئ

كان الناس في الأصل على التوحيد ثم طرأ الشرك، ولم يكن الناس على الشرك ابتداءً، و قد دل على ذلك أدلة منها:

١- قال تعالى : ((وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ))، ووجه الدلالة : أن الله – تعالى – توعد على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، فدل ذلك أنهم كانوا قبل الوعيد على الحق متفقين، لأنهم لو كانوا على الكفر متفقين ثم كان الاختلاف بعد ذلك، لم يكن هذا الاختلاف إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان، فيكون الاختلاف محموداً لا يستحق الوعيد و الذم، والآية ذمت توعدت الاختلاف فدل أنه كان بعد الاجتماع على الحق . (أفاده الطبري)

٢- أدلة بدء الخلق، و ما جاء في شأن آدم عليه السلام و إيمانه .

٣- الآثار الواردة في حدوث الشرك بعد الاجتماع على التوحيد، كقول ابن عباس : "كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الشريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين و منذرين " ، و غير ذلك من الآثار المروية عن بداية الشرك في قوم نوح .

وقد زعم بعض الغربيين وغيرهم ، أن الأصل هو الشرك، ولم يقيموا على ذلك دليلاً صحيحاً ، وكل ما يدل عليه ما صح من دراساتهم أن الشرك قديم، لا أنهم سابق للتوحيد .

مفهوم العبادة

لغة : هي الذل ، يُقال : طريق معبدة ، أي : مذللة .

شرعاً :

١- تعريفها باعتبار(التعبد) :

أ – (طاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه و زجر).

ب-(كمال الحب مع كمال الذل)

٢- تعريفها باعتبار (المتعبد به) :

أ – (ما أمر به الشارع من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي) .

ب- (اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه ، من الأقوال أو الأعمال الظاهرة أو الباطنة)

_ يلاحظ أن العبادة في الشرع زادت عن معناها اللغوي (بانضمام كمال الحب) لكمال الذل .

أركان العبادة

تقوم العبادة على ثلاثة أركان هي :

١- المحبة ، وهي إذا صحت تفرع عنها العمل، قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)

٢- الرجاء ، وهو الاستبشار بوجود الله و مطالعة كرمه وفضله و الثقة به .

٣- الخوف ، و الخوف إذا لم يكن مع الرجاء أدى إلى القنوط، و إن كان الرجاء بدونه أدى إلى الأمن من مكر الله، فلزم اجتماعهما ، قال تعالى : ((إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ))

إن المحبة و الخوف و الرجاء هي محركات القلوب، و لا تكون العبودية إلا بها، و المحبة هي الأصل وهي المقصودة التي تراد لذاتها، و الخوف و الرجاء يستلزمان المحبة ويرجعان إليها، و لا بد من هذه الثلاثة جميعاً لتحقيق معنى العبودية؛ فإن الخوف إن لم يقترن بالرجاء كان قنوطاً، و الرجاء إن لم يقترن بالخوف كان أمناً، و كلاً من الخوف و الرجاء يرجعان للمحبة؛ فالخائف يفر لينال المحبوب، و الراجي يرجو من يحب ما يحب ويأمله منه .

أنواع العبادة

أ – أنواع العبادة من حيث العموم و الخصوص نوعان :

١- عبودية عامة ، و هي عبودية الملك و القهر و الذل، و اعتبر فيها معنى (التعبيد) ، وهي ثابتة لجميع الخلق، فجميع الخلق مذللون لله تعالى ، تحت قهره، نافذ فيهم أمره، وهي قهرية لا اختيارية ، كقوله تعالى : ((إن كل من في السموات و الأرض إلا آتِ الرحمن عبداً))

٢- عبودية خاصة ، هي عبودية الطاعة و المحبة، و اعتبر فيها معنى (العابد) ، وهي اختيارية لا قهرية، لا يقوم بها إلا من اختار النجاة بتوفيق الله ، وهي مناط المدح و الذم، و هي التي أمر الله بها ، كقوله تعالى : ((اعبدوا الله ربي و ربكم)) ، وقال : ((و عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً))

ب– أنواع العبادة باعتبار محلها و أصلها و تعلقها :

١- عبادة قلبية ، وتشمل اعتقادات القلب و أعماله ، كالإخلاص و التوكل و الحب و غير ذلك ، وهي من أهم أعمال الإنسان ، وبصلاحها يصلح حاله ، و إذا كانت كامله كثّرت العمل القليل ، فكم من مصلي ركعتين أفضل ممن صلى عشرين ركعة، لأنه و قر في قلبه من الخشوع و الخشية والمحبة مالم يقر في قلب الآخر .

٢- عبادة قولية ، و أجلّها النطق بالشهادة ، و يدخل فيها الذكر وغيره .

٣- عبادة بدنية فعلية ، و تشمل أعمال الجوارح ، كالصلاة و الحج و الجهاد .

٤- عبادة مالية ، تتعلق بالمال ، كالزكاة .

شروط صحة العبادة

١- الإخلاص ، قال تعالى ((لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ))

٢- المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " .

و قد ذكرهما الله تعالى في قوله : ((فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا))، و قد جاء عن الفضيل بن عياض قوله في قوله تعالى : ((ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)) : " قال : أخلصه أصوبه ، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، و إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً، و الخالص إذا كان لله، و الصواب إذا كان على السنة "

معنى (لا إله إلا الله)

معناها : لا معبود بحق إلا الله

فالإله في اللغة هو المعبود ، فالشهادة نفت أن يكون هناك معبود بحق إلا الله، قال تعالى : ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)) ثم فسرتها الآية الثانية فقال تعالى : ((وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ))، و قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله ..." وفي رواية : " بني الإسلام على خمسة، على أن يوحد الله ..." وفي رواية : " بني الإسلام على خمس على أن يعبد الله و يكفر بما دونه ..." فالروايات تفسر بعضها .

فالمفهوم اللغوي للإله و تفسير الأدلة لبعضها ، يدل على أن معنى لا إله إلا الله (لا معبود بحق إلا الله) كذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم و الأنبياء من قبله ، فإنهم خالفوا قومهم في عبادة غير الله، ودعوهم لعبادته وحده، لذا من أقر بالربوبية دون الإلهية لم يُعصم دمه،

ولا يعد مسلما إجماعاً ، فدل على أن هذه الشهادة التي تحصل بها العصمة والنجاة بالمعنى المذكور .

لذا وقعت تفسيرات خاطئة لهذه الكلمة، تولد منها زلل عند بعضهم ، منها :

١- لا معبود إلا الله ، أو لا معبود موجود إلا الله ، وهذا تفسير خاطئ، لأن هناك معبودات باطلة تعبد من دون الله، قال تعالى ((و اتخذوا من دون الله آلهة)) ، و الواقع يشهد على أن هناك من يعبد غير الله ، لذا كان النزاع في الألوهية الحقة بين المؤمنين و المشركين ، قال تعالى : ((ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه هو الباطل)) و بعض من يقول : ((لا إله موجود إلا الله)) يقصد القول بوحدة الوجود و أن كل الموجودات شيء واحد، وهذا قول كفري بالاتفاق ، بل هو أشد من كفر النصارى و اليهود .

٢- لا قادر إلا الله و لا خالق إلا الله ، وهذا جزء من معنى لا إله إلا الله وليس كله، لأن من أقر بذلك ولم يخلص العبادة لله لم يكن مسلما ، أما الإقرار بالعبادة فهو متضمن للإقرار بالربوبية.

٣- لا حاكم إلا الله ، وهذا كذلك جزء من معنى لا إله إلا الله وليس كله، لأن العبادة أعم. وهناك تفسيرات أخرى ، كلها ناقصة أو فاسدة .

أركان (لا إله إلا الله)

١- النفي ، أي نفي كل معبود سوى الله تعالى ، وهو المذكور في لفظة (لا إله)

٢- الإثبات ، أي إثبات الألوهية لله و صرها له سبحانه ، وهو المذكور في لفظة (إلا الله)

شروط (لا إله إلا الله)

استقرأ أهل العلم شروط تحقيق شهادة التوحيد ، و جمعها الحافظ الحكم بقوله :

العلمُ واليقينُ والقبولُ	والانقيادُ فادرِ ما أقولُ
الصدقُ والإخلاصُ والمحبةْ	وفقك الله لما أحبه

١- العلم ، أي بمعناها نفياً و إثباتاً ، قال تعالى : ((فاعلم أنه لا إله إلا الله))

٢- اليقين ، فلا يدخل إيمانه بها الشك والريب و التردد ، فلا يحتمل إيمانه ما يناقضه، قال تعالى : ((إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا))

٣- الإخلاص، و ذلك بأن يكون قالها لوجه الله لا خوفاً ولا من رياء، قال تعالى : ((و ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء))

٤- الصدق، فلا يخالف ظاهره باطنه، ولا يقولها تقية و نفاقاً، بل يصدق معناها بقلبه وبلسانه وبجوارحه، قال صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله صادقاً من قلبه دخل الجنة " .

٥- المحبة ، إذ هي أصل العبودية ، فلا تتم إلا بها ، فلا بد أن يكون محباً لله تعالى ولرسوله ، قال تعالى : ((و الذين آمنوا أشد حبا لله))، ويلزم من المحبة بغض ما يناقض المحبوب، فيبغض الشرك وأهله، قال صلى الله عليه وسلم: " أوثق عرى الإيمان الحب في الله، و البغض في الله "

٦- الانقياد ، بأن ينقاد لما دلت عليه ، ويكون مستسلماً لله تعالى ، قال تعالى : ((و من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى))

٧- القبول ، فينصاع بقلبه متذللا منكسرا لله ، خاضعا لما جاء به الشرع، لا متكبرا ولا رادا له ، قال تعالى : ((فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا))

مسألة : ما الفرق بين الانقياد و القبول ؟

قال بعض أهل العلم ، الانقياد عمل الظاهر فهو فعل جوارح، و القبول متعلق بالباطن فهو فعل القلب .

نواقض (لا إله إلا الله)

النقض لغة : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء .

ونواقض التوحيد اصطلاحاً : اعتقادات و أقوال و أعمال إذا دخلت على التوحيد تزيله أو تفسده، وترجع نواقض التوحيد إلى :

١- نقضه بالقول ، كأن يتكلم بالكفر غير مكره .

٢- نقضه بالفعل، كالسحر و الذبح أو الصلاة و السجود لغير الله، أوترك ما لا يكون التوحيد إلا بفعله فالترك فعل ٣- نقضه بالاعتقاد ، كاعتقاد الشريك لله .

٤- نقضه بالشك ، وهو أن يتردد في اعتقاد التوحيد .

- الكلام في النواقض فرع عن الكلام في المنقوض (معنى الشهادة وحقيقة الإيمان) ؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فإذا تقرر هذا عُلم أن القول في معنى الشهادة و الإيمان مؤثر في تقرير النواقض، فدراسة النواقض لا تكون إلا بعد أن يتقرر معنى التوحيد .
- التكفير مرده للشرع ، و لا مدخل لجهة غير الشرع فيه، وهو حق لله، فلا نكفر إلا من كفره الله سبحانه .

- النظر في حكم التكفير يكون إلى أمرين :

١- حكم المسألة (القول أو الفعل أو الاعتقاد)

٢- تنزيل الحكم على المعين ، و هذا يختلف باختلاف المكفر ، فهناك من المكفرات ما ينزل حكمه على المعين مباشرة ، وهناك ما لا بد من توافر شروط معينة و زوال موانع حتى ينزل الحكم .

- الأصل في أحوال المسلمين السلامة، ومن ثبت إسلامه كان هو الأصل، فلا يترك إلا بعد التأكد من وجود الناقض

– النواقض العشرة التي سيذكرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ليست شاملة لكل النواقض ، و ذكر أهل العلم أنه اختارها لأسباب منها :

١– كثرة وقوعها و انتشارها في زمانه .

٢– إجماع العلماء عليها .

٣– قيل : أن جميع النواقض ترجع إليها أو هي من جنسها .

متن نواقض الإسلام للشيخ محمد بن عبدالوهاب

اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض:

(الأول) : الشرك في عبادة الله تعالى، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وقال: ((إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ)) ؛ ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو للقبر.

(الثاني) : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم، كفر إجماعا.

(الثالث) : من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم، كفر.

(الرابع) : من اعتقد أن غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه، فهو كافر.

(الخامس) : من أبغض شيئا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو عمل به، كفر.

(السادس) : من استهزأ بشيء من دين الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ثواب الله، أو عقابه، كفر، والدليل قوله تعالى: {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}.

(السابع) : السحر، ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به، كفر. والدليل قوله تعالى: {وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}.

(الثامن) : مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}.

(التاسع) : من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام، فهو كافر.

(العاشر) : الإعراض عن دين الله تعالى، لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}.

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطراً، ومن أكثر ما يكون وقوعاً.

فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، وصلى الله على خير خلقه محمد و آله وصحبه وسلم.

ما يضاد توحيد الإلهية من الشرك الأكبر

الشرك الأكبر في الإلهية هو : صرف العبادة لغير الله ، أو اعتقاد استحقاق غيره لها .

ومن صوره :

١- اعتقاد شريك يستحق العبادة غير الله .

٢- شرك الطاعة، كأن يطيع أحداً في تحليل ما حرم الله ، فيقول للحرام هذا حلال، قال تعالى : ((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله))

٣- شرك الإرادة و القصد ، كأن يدخل الإسلام لإرادة الدنيا، وهو النفاق ، قال تعالى : ((من كان يريد الحياة الدنيا و زينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخر إلا النار و حبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون))

٤- صرف العبادة لغير الله ، فيدخل في ذلك :

أ – الشرك في المسألة ، و ذلك بدعاء غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله ، أو دعاء الميت و الغائب، أو أن يجعل بينه وبين الله وسائط في الدعاء وشفعاء ، وهو فعل

المشركين كما أخبر الله تعالى : ((ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)) ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " الدعاء هو العبادة " فمن دعا ميتاً أو غائباً لا يستطيع سماعه أو دعا مخلوقا فيما لا يقدر عليه إلا الله، وقع في الشرك الأكبر وصار مشركا، و إن و زعم أنه يتخذهم شفعاء .

ب – الشرك في العبادة ، فكل من صرف عبادة قولية – كالشهادة بالألوهية – أو فعليه – كذبح التقرب و النذر – أو قلبية – كمحبة العبودية و خوف العبودية و التوكل – لغير الله فهو مشرك .

– فالذابح لغير الله تقرباً و تعظيما وخضوعاً ، فهو مشرك تحرم ذبيحته ، قال تعالى : ((قل إن صلاتي و نسكي ومحياي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت و أنا أول المسلمين)) وقال : ((فصل لربك و انحر)) وفي الحديث : " لعن الله من ذبح لغير الله".

– و النذر : أن يلزم المكلف نفسه ما لم يلزمه الشرع ، عن طريق صرف لله ، كأن يقول : لله علي نذر أن أصلي ٤٠ ركعة ، و النذر عبادة ، قال تعالى : ((و ما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه)) ، فصرفها لغير الله كأن يبدل قوله : لله علي نذر ، بقول : للمسيح علي نذر = شرك أكبر .

الشرك الأصغر

هو : كل ما جعله الشرع شركاً ، و لكنه لم يصل إلى الشرك الأكبر فلا يخرج من الملة .

حكمه : هو شرك ينافي كمال التوحيد، و معصية من أكبر المعاصي ، و لكنه لا يخرج صاحبه من الملة .

من أمثله :

١– الرياء ، الذي لا يصل إلى درجة النفاق الأكبر ، ففي الحديث : " أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر : الرياء "

٢- الحلف بغير الله و غيره من شرك الألفاظ ، إذا لم يقترن بذلك تعظيم ذلك الغير تعظيم ألوهية ، فهنا يصل للشرك الأكبر . لحديث : " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك " فمثلا من قال : (و النبي) ولم يقصد تعظيمه كتعظيم الله ، فهو شرك أصغر .

٣- التطير ، إذا اعتقد أنه سبب ، و ((جعل ما ليس بسبب سببا بغير طريقة معتبرة شرك أصغر ، أما جعل الشيء فاعلا من دون الله فهو شرك أكبر)) .

يُميّز الشرك الأصغر عن الأكبر بأمور منها :

١- النص على ذلك ، كما جاء في الحديث : " أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر : الرياء "

٢- التنكير ، بأن يُذكر منكّراً بلا ألف، كحديث : " إن الرقى و التمائم و التولة شرك "

٣- بقول الصحابي ، كقول ابن مسعود في التطير : " و ما منا و إلا و لكن الله يذهبه بالتوكل"

٤- ما دلت الأدلة و القرائن بأنه لا يخرج من الملة فهو أصغر .

الفرق بين الشرك الأكبر و الأصغر:

	الشرك الأكبر	الشرك الأصغر
١	مخرج من الملة	لا يخرج من الملة
٢	لا يغفر الله لصاحبه إلا بالتوبة	في إلحاقه ببقية المعاصي التي قد يُغفر لصاحبها بلا توبة خلاف، فقيل : لا يغفر ، وقيل : قد يغفر .
٣	محبط لجيمع الأعمال	لا يحبط إلا العمل الذي قارنه
٤	صاحبه مخلد في النار	لا يخلد صاحبه في النار
٥	يُحلّ النفس و الأموال ويقطع أصل الموالاة	لايحل النفس والمال و لايقطع أصل الموالاة بل ينقصها

أبرز شبهات المخالفين في توحيد الإلهية و الرد عليها

الشبهة الأولى : الاحتجاج بفعل الآباء ، فيقول المشرك : هذا ما كان عليه الناس، وورثناه خلفا عن سلف .

الجواب : أن هذه حجة المشركين الأوائل التي أبطلها الله ، قال تعالى : ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ))، وحجتهم هذه حجة فرعونية ، فقد قال فرعون لموسى لما دعاه للتوحيد : ((فما بال القرون الأولى)) وقال قوم صالح لصالح : ((أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباءنا)) .

الشبهة الثانية : قولهم : أن من قال (لا إله إلا الله) فلا يجوز تكفيره و إن دعا غير الله وذبح له .

الجواب : تقدم أن من شروط لا إله إلا الله الانقياد و القبول و الإخلاص، فلا بد من العلم بمعناها و العمل بمقتضاها- كما تقدمت أدلة تلك الشروط - ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا و كفر بما يعبد من دون الله حرم ماله و دمه " وهؤلاء لم يكفروا بما يعبد من دون الله ، لذا أجمع أهل العلم على كفر المنافق الناطق للشهادة بفمه معتقدا خلافها، و أجمع الصحابة على كفر أهل الردة و حرب أبي بكر لهم مع أنهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، و أجمعت الأمة على كفر من سب الله و رسوله و إن كان يقول لا إله إلا الله .

الشبهة الثالثة: قولهم: ندعو الأولياء ولا نعتقد فيهم الربوبية، بل نريد أن يشفعوا لنا عند الله، لأنهم أهل صلاح

الجواب: أن هذا هو عين شرك المشركين الأوائل الذين كفرهم الله تعالى ، فهم زعموا أنهم يشركون للشفاعة ، و هم يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ، قال تعالى : ((قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)) ، ولكنهم برروا شركهم

بإرادة الشفاعة ، قال تعالى : ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)) وقال عن المشركين : ((وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)) .

و الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله و رضاه قال تعالى : ((وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى)) و الله لا يرضى الكفر، فلا شفاعة مع الشرك، لذا الشفاعة لا تطلب من الموتى بل من الله ، قال تعالى: ((قل لله الشفاعة جميعا)) .

الشبهة الرابعة : ظنهم (١)أن الشرك مخصوص بعبادة الأوثان بخلاف دعاء الصالحين من دون .

الجواب: أن الله أخبر أن هناك من أشرك بعبادة الصالحين، فقال : ((و إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)) ، و قال صلى الله عليه وسلم: " اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " ، قد جاء أن اللات و كان رجل يلت السويق للحجاج فغلوا فيه حتى عبدوه ، وكذا جاء عن ابن عباس أن قوم نوح كان شركهم في الغلو بالصالحين، فمن عبد غير الله صالحا كان أو لا فهو مشرك .

الشبهة الخامسة : زعمهم أن دعاء الصالحين والاستغاثة بهم ليس عبادة لهم ، و ليس شركا، بل هو استشفاع و طلب وسيلة .

الجواب : أن الدعاء عبادة من أعظم العبادة ، قال صلى الله عليه وسلم : " الدعاء هو العبادة " ، و سمى الله تعالى الدعاء عبادة فقال : ((وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ))، فدلت الأدلة الصريحة أن دعاء المشركين للأولياء من العبادة ، وكل من عبد غير الله تعالى فهو مشرك، لذا أمر الله تعالى

بإخلاص الدعاء له فقال : ((و أن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً))، و قال في وصف المؤمنين((و الذين لا يدعون مع الله إلها آخر))

الشبهة السادسة : زعمهم أن هذه الأمة لا يقع فيها الشرك ، و استدلوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، و لكن في التحريش بينهم "

الجواب : ١- أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بوقوع الشرك في هذه الأمة فقال: " لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة " و كانت صنما تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة ، وقال : " لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين فتعبد الأوثان " ، و الوثن اسم جامع لكل ما يعبد من دون الله وليس خاصا بالأصنام ، لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : " اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد " و قد أجمع الصحابة على وقوع الردة في جزيرة العرب وقامت حروب الردة ، ولم يقولوا أن الردة لا تقع في هذه الأمة ! . وقد أشرك أهل الكتاب و النبي – صلى الله عليه وسلم – أخبر أن كثير من هذه الأمة سيتبع سننهم .

٢- استدلالهم بالحديث على عدم وقوع الردة باطل من وجوه منها :

أ – ما تقدم من إخبار النبي – صلى الله عليه وسلم – من وقوعها، ومن فعل الصحابة في حروب الردة .

ب- أن المراد الإخبار عن ظن الشيطان وقت عز الإسلام، ولا يلزم أن يكون ظن الشيطان صحيحاً ، فلا يعلم الغيب إلا الله ، ويحتمل أن يكون المراد هو إياسه من إطباق الأمة على الشرك .

الشبهة السابعة : ظنهم أن الشرك لا يكون إلا في الربوبية ، فمن عبد غير الله تعالى دون أن يعتقد فيه الربوبية فليس مشركا .

الجواب : أن الكفر و الشرك أنواع ، إذا وقع المكلف في واحدة منها كان مشركا كافراً ، ولو لم يقع في الأخرى ، ألا ترى أن من سب النبي صلى الله عليه وسلم يصبح كافرا ولو لم يعتقد فيه الربوبية ، و كذلك الشرك في العبادة يخرج صاحبه من الملة، ولو لم يعتقد ربوبية من عبد، و قد تقدم أن معنى لا إله إلا الله هو : لا معبود بحق إلا الله ، فمن ترك مقتضاها كان تاركا للتوحيد .

و تقدم معك أن الله بعث الرسل لتوحيد العبادة ، و أن المشركين الأولين كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرازق و لكنهم عبدوا الصالحين بزعم أنهم يشفعون لهم عند الله ، لا أنهم اعتقدوا أنهم يخلقون من دون الله ويرزقون من دون الله، وقد جاء عن ابن عباس تفسير قوله تعالى : ((وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)) قوله : " من إيمانهم إذا قيل لهم : من خلق السماء؟ من خلق الأرض ؟ من خلق الجبال ؟ قالوا الله وهم مشركون " وعن عكرمة قال : " تسألهم من خلقهم؟ و من خلق السموات و الأرض؟ فيقولون : الله ، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره " وجاء نحوه عن غيرهم من السلف كمجاهد ، فإقرارهم بالربوبية لله لم ينفعهم لـمّا عبدوا غيره ، فلا فرق بين الربوبية و الألوهية ، فكلها من خصائص الله ، فمن عبد غير الله كان مشركا، كمن تعتقد أن غير الله يخلق، إذ الشرك أن تجعل ما لا يكون إلا لله لغيره، فمن عبد غير الله كان كذلك .

الشبهة الثامنة : قولهم : أن المشركين الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون الشهادتين، و يكذبون الرسول ولا يقرون بالبعث، و يكذبون القران ، و نحن بخلاف ذلك .

الجواب : أن الإجماع منعقد أن من كفر ببعض ما جاء به الرسول فهو كافر ، قال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا))، ألا ترى أن من استهزأ بالنبي صلى الله عليه وسلم يكفر ولو كان قصده اللعب و لو كان يشهد بالشهادتين وغيرها من أمور الإسلام ، و أن من زعم أن الزنا حلال كفر ، و من أنكر وجوب الصلاة كفر ، ولو كان يشهد الشهادتين ويؤمن بالبعث وغيرها ، و أن الصحابة قاتلوا مانعي الزكاة من أهل الردة مع أنهم كانوا يشهدون بالشهادتين و البعث و غيرها ، و لكن لما منعوا الزكاة وقاتلوا عليها كفروا ، فكيف بمن ترك معنى لا إله إلا الله و العمل به وهو أعظم الفرائض ؟! .

ألا ترى أن المرء قد يكفر بكلمة بعد إسلامه مع أنه يشهد بالشهادتين و يصلي وغير ذلك ، كما قال تعالى : ((و لقد قالوا كلمة الكفر و كفروا بعد إسلامهم))و قال عن الذين استهزأوا بالدين ((لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم)) مع أنهم زعموا أنهم كانوا يلعبون فقط ، فالشرك أعظم النواهي من فعله خرج من الملة، سواء نطق بالشهادتين و أقر بالعبث و النبوة أم لا .

كما أن من فعل الشرك لم يكن محققا للشهادتين ، و إن نطقها بلسانه ، فهو نطق شيئا يخالفه وهذا لا ينفعه ، كالمنافق .

الشبهة التاسعة : قالوا قد دلت الأدلة على جواز الاستغاثة بالصالحين والاستشفاع بهم، كما في حديث الشفاعة العظمى أنهم يستشفعون بالأنبياء .

الجواب : أنه لا خلاف في جواز الاستغاثة بالحي القادر ، و كذا طلب الشفاعة من الصالح الحي كأن تقول : ادع الله لي ، وهو حي حاضر يسمعك ، هذا جائز ، وكلامنا ليس عنه ، فإن هذا من طلب المخلوق ما يقدر عليه كما قال تعالى عن موسى : ((فاستغاثة الذي من شيعته على الذي من عدوه)) .

و إنما الشرك هو أن تدعو دعاء عبادة لغير الله ، كأن تدعو غائبا عاجزا من المخلوقات ، أو تدعو مخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ، فإن الناس يستشفعون بالأنبياء يوم القيامة بطلبهم أن يدعو الله أن يزيل الشدة ، لا أنهم يدعونهم من دون الله في إزالة الشدة ، و

كذا الصحابة لم يطلبوا من النبي لـمّا كان حيا إلا الدعاء لهم أو ما يقدر هو عليه مع توكلهم على الله ، أما طلب ما لا يقدر عليه إلا الله فشرك ،كذا دعاء الموتى و الغائبين ، و لما مات النبي صلى الله عليه وسلم ، و قام الصحابة للاستسقاء في عهد عمر ، قدّم عمر العباس – رضي الله عنهم – ليدعو الله لهم، وقال : " اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قم يا عباس فادع الله " فانظر إلى الصحابة لم يتوسلوا بدعاء النبي بعد موته، بل طلبوا من العباس و كان حيا أن يدعو لهم ، وهذا توسل مشروع.

السحر

تعريفه :

لغة : (ما خفي و لطف سببه) ، فما خفي سببه سُمّي سحراً ، فيدخل في اسم السحر أمور كثيرة ، للطافة مداركها و لأن آثارها تشبه آثار السحر ، من ذلك :

١- الشعبذة، وهي التي تقع بخدع و تخييلات تعتمد على خفة اليد ونحوها، وهي محرمة لكنها لا تأخذ حكم السحر الذي يستعان فيه بالشياطين .

٢- السحر المجازي، وهو الذي يستعمل عن طريق أدوية وعقاقير تشبه السحر في آثاره و تأثيره، فهذا يحكم على صاحبه بحسب إفساده وعدوانه.

٣- النميمة ، قال صلى الله عليه وسلم : " ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة" و العضة : السحر –كما جاء عن عكرمة – ، فجُعلت النميمة سحراً لأنها تفسد كما يفسد السحر ، ويخفى سببها إفسادها على المفسد عليه .

٤- بعض البيان، لقوله صلى الله عليه وسلم : " إن من البيان لسحراً " ، و ذلك لأن البيان له تأثير في النفوس.

تعريفه الاصطلاحي : تعددت عبارات العلماء في تعريفه و تباينت تباينا شديداً، و السبب ما ذكره الشنقيطي في قوله : " لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، و لا يتحقق قدر مشترك بينهما يكون جامعا مانعاً لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حدّه اختلافاً متباينا "

و من أشهر تعريفاته أنه : " عزائم و رقى وكلام يتكلم به و أدوية و تدخينات ، و له حقيقة ، و منه مايؤثر في القلوب و الأبدان، فيُمرض و يقتل ويفرق بين المرء و زوجه بإذن الله القدري".

و قيل هو : " علم خفي، تزاوله النفوس الخبيثة، إما بقصد التخييل على الشيء، أو بقصد الإضرار به، و يستعان في هذا الإضرار بالتقرب للشياطين بارتكاب الشرك و القبائح قولا وعملا واعتقاداً، فينتج عن ذلك أثر حقيقي على المسحور بدون إرادته ، بإذن الله القدري"

مسألة : هل للسحر حقيقة ؟

الجواب : نعم ، ومن أدلة ذلك قوله تعالى : ((فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء و زوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله)) ، فالسحر يحصل منه ضرر حقيقي بإذن الله القدري ، وهذا خلاف ما يحكى عن أبي حنيفة وابن حزم و المعتزلة الذين نفوا أن يكون للسحر حقيقة ، وقالوا : هو تخييل و تمويه ، والحق أن السحر منه ما له حقيقة و منه ما هو من التخييل .

أنواع السحر

مما تقد يتبين أن السحر نوعان :

١- حقيقي ، وهو ما يؤثر تأثيرا حقيقياً فيُمرض و يقتل و يفرق بين المرء و زوجه .
٢- تخييلي ، و هو التمويه و التخييل ، بحيث يظهر للمسحور الشيء على غير حقيقته .

و يدخل في النوعين السابقين : (الصرف) وهو سحر يؤدي إلى التفريق بين المتحابين .

و (العطف) وهو سحر يؤدي إلى التقريب و التحبيب، و هو (التِوَلَة) المذكور في حديث : " إن الرقى و التمائم و التولة شرك " .

حكم الساحر

أجمع العلماء على تحريم السحر، و لكن هل يكفر الساحر؟

من العلماء من قال : يكفر مطلقاً ، و منهم من قال : إذا كان سحره عن طريق عبادة الشياطين و التقرب للكواكب، فهو كفر، و إلا فلا يكفر إلا إن اعتقد إباحته، وكذا تعلم السحر، و هذا ظاهر قول الشافعي حيث قال : " إذا تعلم السحر قيل له : صف لنا سحرك، فإن وصف ما يستوجب الكفر مثل سحر أهل بابل من التقرب للكواكب و أنها تفعل ما يطلب منها فهو كافر، و إن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد بإباحته فهو كافر و إلا فلا "

و قال القحطاني في نونيته :

و السحر كفر فعله لا علمه   من ها هنا يتميز الحكمان

وذهب بعض أهل العلم أن السحر لا يكون تعلمه و فعله إلا عن طريق الشرك ، فكله كفر.

والحاصل : أن فعل السحر الذي عن طريق التقرب بالشياطين كفر بالاتفاق ، واعتقاد حل السحر كفر كذلك بالاتفاق ، و بعض العلماء قال أن هناك أنواع من السحر لا يكون عن طريق التقرب فلا يكفر فاعلها إن اعتقد حرمتها ، ومن العماء من قال لا يكون السحر و تعلمه إلا بالشرك فكله شرك .

و السحر الكفري شرك أكبر من جهتين :

١- من جهة الألوهية بالاستعانة بالشياطين و الكواكب وصرف العبادة لهم .

٢- من جهة الربوبية بادعاء التأثير و معرفة علم الغيب .

و من أدلة ذلك قوله تعالى : ((وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ)) ، فدلت الآية على كفر فاعله و متعلمه .

عقوبة الساحر

عقوبة الساحر : أن يُقتل بالسيف ، قال أحمد : " عن ثلاثة من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " و عن جندب يرفعه : " حد الساحر ضربة بالسيف "، وعن عمر :" اقتلوا كل ساحر وساحرة " قال بجالة بن عبدة: فقتلنا ثلاثة سواحر "، وعن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت(رضي الله عن صحابة نبيه أجمعين) .

مسألة : هل يُستتاب أم لا ؟

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن : " ظاهره – أي الأدلة – أنه يقتل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك ، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة، و عن أحمد : يستتاب فإن تاب قبلت توبته، وبه قال الشافعي، لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك، و المشرك يستتاب وتقبل توبته، و لذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم"

فائدة : المشعبذ يُعزر لا يقتل ، قال البهوتي : " و يعزر ... ممن يعمل الشعبذة و نحوها " .

النُّشرة

تعريفها : ضرب من الرقية و العلاج يعالج به من كان يُظن أن به مسا من الجن، سُمِّيت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء ، أي: يُكشف و يُزال ، والمراد بها هنا : (حل السحر عن المسحور) .

أقسامها و أحكامها : النشرة نوعان :

١- ممنوعة ، وهي حل السحر بما حرم الله ، كحل السحر بمثله ، و هذا محرم وقد تصل للشرك إن كان فيها تقرب لغير الله ونحوه ، لما روي عن جابر – رضي الله عنه – أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن النشرة فقال : " هي من عمل الشيطان " ، وقال " لا تداووا بحرام" وقال: " ما جعل الله شفاء أمتي فيما حرم عليها " .

٢- مباحة أو مشروعة ، كحل السحر بالرقية و التعويذات و الأدعية الشرعية، و بالأدوية المباحة ، فهذا جائز و مشروع ، فقد رقى النبي – صلى الله عليه وسلم – نفسه و أهل بيته ، و أنزلت المعوذتين للرقية من سحر لبيد، و أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالتداوي ، و وصف عدة أدوية كالعجوة و العسل و غيرها .

ادعاء علم الغيب وبعض صوره :

ادعاء علم الغيب كفر مخرج من الملة ، لأنه تكذيب لقوله تعالى : ((قل لا يعلم من في السموات و الأرض الغيب إلا الله)) ، حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدعه، قال تعالى : ((قل لا أقول لكم عندي خزائن الله و لا أعلم الغيب)) ، و الله قد يطلع بعض خلقه على بعض ما يغيب عن بقية الخلق، فيكون غيبا نسبياً ، و يكون معرفة هذا المخلوق بهذا الغيب بإظهار الله تعالى له هذا الغيب، لا أنه عرفه ابتداء .

و من صور ادعاء علم الغيب ما يلي :

أولا : التنجيم

التنجيم لغة : طلب العلم بالنجوم.

وشرعا : الاستدلال بالنجم .

-[الحكمة من خلق النجوم]

خلق الله النجوم لحِكم كثيرة ، أخبر الله عنها ، و منها :

(١)- أنها علامات لمعرفة الجهات، و يهتدي بها المسافر إلى البلدان، قال تعالى : ((وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

(٢)- أنها تُزيّن السماء الدنيا

(٣)-أنها رجوم للشياطين المسترقين للسمع بعد البعثة النبوية، قال تعالى ((وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ))

أقسام التنجيم و أحكامه :

١- **علم التأثير** : وهو ((الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية)) ، بأن يجعل الأبراج و النجوم سببا لما ليست سببا له ، أو مؤثرة من دون الله ، كأن يقول إذا جاء نجم كذا وولد مولود فهو سعيد ، أو ينظر للنجوم ويقول سيحدث كذا أو كذا ، ولا دليل عنده معتبر.

حكمه : إن اعتقد أنها أسبابا بلا دليل معتبر ، فهو مشرك شركا أصغر، و إن ظن أنها فاعلة من دون الله تعالى ، فهو شرك أكبر ، وهذا بداية شرك قوم إبراهيم فإنه كانوا يزعمون تأثير الكواكب و أنها تؤثر من دون الله ويتقربون لها، وكذا بعض الفلاسفة الذين زعموا أن فلك القمر أو الفلك التاسع هو المؤثر في الحوادث السفلية .

و **الدليل** : قوله صلى الله عليه وسلم : " من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد "

ملاحظة : إذا دل الدليل على أن الكوكب سبب وكان دليلا معتبراً ، كتسبب القمر بالمد و الجزر ونحوه، فلا يعد شركا ، كما ذكر ذلك ابن تيمية وغيره، و كذا العلامات الشرعية التي تتعلق بالكواكب كأن يرى انتفاخ الأهلة فيستدل على ذلك بأنه في آخر الزمان ، فإن هذا دليل معتبر لورود الأثر بذلك ، و كذا طلوع الشمس من مغربها، و الخسوف و الكسوف ،فإن هذا كله من العلامات الثابتة بدليل معتبر .

٢- **علم التسيير** : وهو ((الاستدلال بها على الجهات و البلدان و الأزمان و نحو ذلك)) ، كحساب التقاويم، و معرفة بروج الشتاء و الصيف ، و أوقات التلقيح، والتأبير ، و الأمطار ...

حكمه : جائز لا محظور فيه ، بل قد يجب أحيانا، كفعله لمعرفة أوقات الصلاة و جهة القبلة .

ملاحظة : الاستدلال بالنجوم لتوقع الأحوال جائز إذا دل الدليل المعتبر، لكن بشرط ألا تُنسب النعمة لتلك النجوم و الكواكب أو تجعل سببا وهو ليست كذلك، فهذا شرك أصغر، كذا لو نسب التأثير التام لها ، فشرك أكبر ، فقد جاء في الحديث : " هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ ... قال : أصبح من عبادي مؤمن بي و كافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، و أما من قال : مطرنا بنوء كذا و كذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب "

ثانيا : الكهانة

هي : طلب العلم بالمستقبل و الإخبار عما في الضمير .

و الكنهة من الطواغيت عند العرب في الجاهلية ، فكانت تتصل بهم الشياطين، و يدّعون علم الغيبيات و يتحاكم العرب إليهم .

و الكاهن هو الذي يدعي أنه يعلم الغيب، وهو لفظ يطلق على العراف، والرمال، والذي يضرب بالحصى، والمنجم؛ فكل من أخبر عن المغيبات في المستقبل، هو كاهن، وكل من ادعى معرفة علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، أو مشارك له في المعنى، فيلحق به.

و ما يتكلم به الكاهن فيقع كما أخبر فذلك سببه مسترق السمع من الشياطين الذي يلقي للكاهن ما استرقه ومعه تسعا وتسعين كذبة –كما جاء في الحديث – ، فصارت نسبة إصابته الحق في حقه واحد إلى مائة مما يدل على أن إصابة الحق عنده ضعيفة جدا، بل بعيدة للغاية، وعندئذ فلا تكون إصابته لأنه عالم، بل لأنها وافقت ما في علم الله، وإلا فإنه رماها مع عدم علمه بأنها ستقع قطعاً .

وعلى هذا، فالكاهن في إخباره عما يقع في المستقبل، أو في الضمير كاذب في ادعاء علمه، وهو يستغل البسطاء من الناس، ويسلب أموالهم بغير حق، وهو ينشر أنواع الشعوذات فيهم، ويجعلهم أكثر قابلية للدجل، والشعوذة والإيمان بالخرافة.

ومن هنا حرمت الكهانة وما في معناها من العرافة وهي: الاستدلال على المسروق ببعض المقدمات، كأثر السارق، ورؤية محل السرقة، أو منديل السارق، أو نحو ذلك؛ لأنها من جنس الكهانة، وفيها ما فيها من معنى.

حكمها :

الكاهن كافر بالله (كفراً أكبر) لادعائه علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فهو مشرك .

وحكم من أتاه :

١-أن من أتاه مصدقاً أنه يعلم الغيب (كافراً كفراً أكبر)

٢- أما من لم يصدقه لكن حضر مكانه ليرى ما يفعله فقط، أو حضر ليعمل بما أشار به لدعوى أنه لا ضرر فيه، فإن أفاد حصل المطلوب، وإن لم يحصل فلا ضرر؛ فإنه (كافر كفراً أصغر) .

٣-أما من أتاه لينهاه عن المنكر أو يحذر منه أو يكشف كذبه و ضلاله ونحو ذلك وهو من أهل العلم، ففعله واجب **الدليل** : قال الرسول عليه الصلاة والسلام: ((من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم)) رواه أبو داود. وفي رواية للأربعة: ((من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم)) وعند مسلم: ((من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً)) ولأحمد رضي الله عنه فيمن أتى الكاهن فصدقه روايتان:

إحداهما: أنه كفر أصغر .

الثانية: التوقف مع تسميته كافراً كما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم, فالتوقف في الحكم لا في التسمية .

ويلتحق بالكاهن حكماً به الرمال، والضرب بالحصى، وقراءة الكف، والفنجان، وقراءة الحروف الأبجدية، وقراءة البروج، وقراءة الخطوط ونحو ذلك مما انتشر في هذا العصر من أنواع الكهانة .

التطير

تعريف التطير

لغة : أصله مأخوذ من الطير، لأنهم كانوا في الجاهلية يعتمدون على الطير، فإذا خرج أحدهم لأمر، فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير، فيعتمدها؛ فجاء الشرع بالنهي عن ذلك.

اصطلاحا : هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم .

بمرئي : مثل لو رأى طيرا يساره فتشاءم ، أو مسموع : مثل من هم بأمر فسمع رجلا يقول : خسارة ، فتشاءم ، أو معلوم : كالتشاؤم ببعض الأيام .

حكم التطير :

التطير ينافي التوحيد من وجوه، منها :

١– من جهة الإلهية بنقص التوكل على الله .

٢– من جهة الربوبية بأنه جعل ما ليس بسبب سبباً ، أو اعتقد تأثيره من دون الله .

و هذه المنافاة قد تكون منافاة لكمال التوحيد الواجب ، و قد يذهب معها التوحيد فتكون منافاة كلية، وذلك يختلف باختلاف حال المتطير ، فهو على حالين :

١- أن يعتقد أن لا يعتقد أن هذا الطير مؤثر من دون الله، بل يعتقد أنه سبب ونحوه، فهذا شرك أصغر .

٢- أن يعتقد أنه مؤثر من دون الله، فهذا فشرك أكبر .

الدليل : قال صلى الله عليه وسلم : " لا عدوى ولا طيرة "، وقال : "لا طيرة، وخيرها الفأل". قالوا: وما الفأل؟ قال: "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم" ، وقال : " الطيرة شرك " .

مسألة : ما الفرق بين الطيرة و الفأل ؟

الجواب: الطيرة سوء ظن بالله عز وجل، وصرف شيء من حقوقه عز وجل لغيره، وتعلق للقلوب بمخلوق لا ينفع ولا يضر. والفأل حسن الظن بالله سبحانه وتعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم "إنما كان يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به عز وجل، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال، ولا يعني التفاؤل أن يجعل ما ليس بسبب سببا، بل هو حسن ظن بالله و استبشار بفضله .

مسألة : ما ضابط الطيرة المنهي عنها ؟

الجواب: يقع المكلف في الطيرة المحرمة إن ردته عن الذي عزم عليه، أو إن بقي قلبه خائفاً قلقاً منها.

فالطيرة هي ما أنقصت التوكل، أو أمضتك أو ردتك ، كما في الحديث : " ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه؛ فلا يصدنكم " و في حديث آخر : " من ردته الطيرة عن حاجته، فقد أشرك "

أما إن وقع التشاؤم ابتداء ثم دفعه مباشرة، ومضى متوكلا على الله فلا إثم عليه، لما جاء في الحديث الموقوف : " الطيرة شرك، وما منا و إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل " و قول (وما منا و إلا ...) من مدرجات الصحابي .

مسألة : كفارة الطيرة و طرق صرفها .

إن وقعت الطيرة في القلب ، فكفارتها المبادرة بنفيها ، و التوكل على الله بأن يعلم أن الأمور كلها بيده سبحانه، و أن هذا التطير هو وسواس في النفس لا أثر له ، ثم يذكر ماورد في نفي التطير :

١- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من ردته الطيرة عن حاجته، فقد أشرك"، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: "أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك" .

٢- قال صلى الله عليه و سلم : " فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك " .

من أمثلة التطير :

التشاؤم من بعض الأيام والشهور، و التطير بحركة العين: كأن يقال : إذا رفت اليسر فخير و إن رفت اليمنى فشر ، ولا خير و لا شر في هذا، التشاؤم ببعض الملابس ، أو جعل بعضها جالباً للحظ أو للتعاسة، ما يفعله أحدهم بالمصحف ، كأن يفتحه ثم ينظر لأول آية تقع عليها عينه، فيتطير ، كذا ما يفعله بعضهم بالأرقام أو الصور و نحوها .

الرقى

تعريفها :

لغة: جمع رقية، وهي العوذة. أو ما يعرف عند العامة بـ "العزيمة"، أو "التعويذة" التي يرقى بها صاحب الآفة -كالحمى والصرع، وتقرأ على المريض أو اللديغ أملا في شفائه.

الرقية اصطلاحا : عوذ و دعوات تُقرأ على المريض، أو في ماء، أو تُكتبت ثم تمحى بماء يُسقاه المريض .

أقسامها و أحكامها:

الأول : الرقية الشرعية : وهي الرقى التي تحققت فيها شروط الرقية .

- شروط الرقية الشرعية :

١- أن تكون بكلام الله تعالى و أسمائه وصفاته ، و الأولى الاقتصار على الأدعية المأثورة.

٢- أن تكون بالعربية ، أو بما يعرف معناه من غيرها .

٣- أن يعتقد أنها لا تؤثر بذاتها ، و أن الشافي هو الله تعالى ، فلا يتعلق قلبه إلا بالله ، ولا يرجو الشفاء إلا منه .

الثاني : الرقية الممنوعة ، وهي التي فقدت شرطا من شروط الرؤية، وقد تكون محرمة وقد تكون شركية .

فكل رقية فيها دعاء غير الله فهي شركية ،كذا لا يجوز أن تكون بكلام غير مفهوم لأنها قد تكون سحرا أو شركا ، ولا يعلق المريض قلبه عليها بل يتوكل على الله .

الأدلة :

١-عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله! كيف ترى في ذلك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك".

٢- إقراره صلى الله عليه وسلم لفريق من الصحابة فعلوا الرقية؛ كإقراره صلى الله عليه وسلم للرهط الذين نزلوا بأحد أحياء العرب، فلدغ سيد الحي، فرقاه أحد الصحابة بسورة

الفاتحة، وأخذ على ذلك جعلا، فقال صلى الله عليه وسلم: "وما يدريك أنها رقية؟ أصبتم، اقسموا، واضربوا لي بسهم" .

٣-فعله صلى الله عليه وسلم الرقية بنفسه وبغيره؛ فعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات؛ فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن، وأمسح بيده نفسه لبركتها. وعنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعوذ بعض أهله، يمسح بيده اليمنى، ويقول: "اللهم رب الناس، أذهب البأس، واشفه وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاءك، شفاء لا يغادر سقما"

٤- أمره – صلى الله عليه وسلم – بالرقية، فقد قال في جارية فو وجهها سفعة : "استرقوا لها، فإن بها النظرة" .

فائدة : يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "كان صلى الله عليه وسلم يرقي نفسه، وغيره، ولا يطلب من أحد أن يرقيه".

التمائم

تعريفها :

لغة: جمع تميمة، وهي خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم لدفع العين بزعمهم، أو قطعة من الجلد ونحوه، يكتب عليها أدعية وأوراد، يعلقونها على مرضاهم، بغرض دفع شر متوقع، أو الشفاء من مرض حاصل وقع.

اصطلاحا : اسم جامع لكل ما يُعلّق لرفع البلاء أو دفعه أو لجلب منفعة .

أنواعها و أحكامها :

النوع الأول : محرمة بالاتفاق ، وهي كل تميمة لم تكن من القرآن، ولا من دعاء الله ، ولا بذكر أسمائه و صفاته .

وحكمها :

شرك ، و يختلف نوعه باختلاف الحال :

أ- فقد يصل إلى الشرك الأكبر إذا كانت:

١- دعاء غير الله ونحو ذلك من الشركيات أو ٢- اعتقد أنها تؤثر بذاتها من دون الله .

ب- و تكون من الشرك الأصغر إن لم يكن فيها شركا ، واعتقد أنها سبب لا أنها تؤثر من دون الله، كأن يعلق حديدة أو خرزة يظن أنها سبب .

الدليل : قوله صلى الله عليه وسلم : " من تعلق تميمة فقد أشرك " وقوله : " من تعلّق شيئا وكل إليه " .

النوع الثاني : مختلف فيها ، وهي التي تكون من القرآن أو بأسماء الله وصفاته و دعائه .

فقد ذهب جمع من الصحابة —كعائشة و عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما — و بعض السلف: إلى جوازها، وجعلوها من الرقية، وذهب جمع آخر من الصحابة —كابن مسعود و ابن عباس رضي الله عنهما — والسلف : إلى المنع منها، تمسكاً بعموم النهي، و سداً للذريعة.

بعض صور التمائم المحرمة المعاصرة :

- وضع صورة أو ناب حيوان أو حجر أو سحبة على السيارة أو عند باب البيت لدفع الحسد.
- لبس الأساور و الملابس، لجلب الحظ أو دفع الأذى .

التوسل

تعريفه :

لغة : التقرب للشيء بالشيء .

اصطلاحاً : له اطلاقان ، عام و خاص .

العام : مطلق التقرب إلى المطلوب بما يحب .

الخاص : ذكر الداعي في دعائه ، ما يرجو أن يكون سببا في قبول دعائه، أو أن يطلب من غيره الدعاء له .

أقسامه و أحكامه :

الأول : التوسل المشروع ، وهو التقرب إلى الله بما يحبه و شرعه، **ودليله** : قوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)) .

وهو أنواع، منها :

١- التوسل بالله عز وجل؛ بذاته المقدسة، أو بأسمائه الحسنى، أو صفاته العلى، أو أفعاله، ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ((وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ))

٢- التوسل بالأعمال الصالحة. ودليل ذلك من كتاب الله، و من أدلته قوله تعالى: ((إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)) وما جاء في السنة: قصة النفر الثلاثة الذين توسلوا بأعمالهم الصالحة؛ من بر الوالدين، وترك الفواحش، وأداء الحقوق، وقال كل واحد منهم في آخر الدعاء: " اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه" فاستجاب الله عز وجل لهم .

٣- التوسل بطلب الدعاء من الصالح الحي الحاضر، ودليل ذلك قوله عز وجل حكاية عن أبناء يعقوب عليه السلام: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ}، وكذا طلب عمر من العباس أن يدعو الله أن يسقيهم.

٤- التوسل إلى الله بذكر الداعي لحاله وضعفه ، و دليله ما أخبر الله تعالى عن عبده زكريا : ((قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا)) ، وقول أيوب عليه السلام : ((وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)).

الثاني : التوسل الممنوع

لـمّا كان الدعاء عبادة توقيفية لم يجز أن يُطلب قبوله بما لم يدل عليه الدليل، فلا ابتداع ، و كل تقرب إلى الله بما لم يشرع فهو بدعة ممنوعة ، فالتوسل إليه سبحانه بما لم يشرع من البدع، والتوسل الممنوع منه ما يصل للشرك الأكبر ومنه ما دون ذلك ، ومن أنواعه :

١- التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الشركية و البدعية، و بالمنكرات ، كالتوسل إلى الله بالدعاء عند قبر الولي، أو بالشرك الأكبر كدعاء الغائبين و الموتى .

٢- التوسل إلى الله بذات أو جاه نبي أو صالح أو حقه ، كأن يقول : اللهم بنبيك اغفر لي ، أو بحق نبيك ارزقني، أو بجاه نبيك اشفني ، فهذا توسل ممنوع ، للأمور التالية :

أ- أنه لا دليل على ذلك، و الصحابة و السلف لم يفعلوا ذلك ، فلم يتوسلوا بذات النبي صلى الله عليه وسلم، و من باب أولى غيره من الصالحين، بل جاء عن الصحابة ما هو خلاف ذلك ، ففي عهد عمر ، قدّم عمر العباس – رضي الله عنهم – ليدعو الله لهم، وقال : " اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قم يا عباس فادع الله " ، فدل كلامه أنهم ما توسلوا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا التوسل المشروع في حياته، لا الممنوع بعد وفاته، فدل ذلك على أن هذا الفعل لا دليل عليه وهو خلاف فعل السلف. .

ب- أن قرب الأنبياء و الصالحين إلى الله لا ينفع غيرهم إلا باتباع أثرهم ، لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة : " لا أغني عنك من الله شيئا " وقال تعالى : ((و أن ليس للإنسان إلا ما سعى)) .

ج- أنه لا مناسبة بين ذات النبي و الصالح وجاههما و بين استجابة دعاء الداعي، فكأن الداعي يقول : اللهم لأن عبد فلان صالح ويعبدك فاغفر لي أنا !! ، فأي علاقة بين هذا وهذا و أي مناسبة ؟!! .

د - أنه لا حق لأحد على الله إلا ما أوجبه على نفسه ، فالله أوجب على نفسه إثابة الطائعين ونصرة المتقين، و ليس مما أوجبه الله على نفسه إجابة دعوة من يذكر ذات وجاه ذلك الصالح !! .

٣- من أنواع التوسل الممنوع ، الإقسام على الله بالمتوسل به ، وهذا يدخل في الحلف بغير الله ، وقد جاء في الحديث : " من حلف بغير الله فقد أشرك " .

التبرك

تعريفه : البركة كثرة الخير وزيادته واستمراره ، فالتبرك : ((طلب النماء و الزيادة في الخير)) . والتبرك منه الديني ومنه الدنيوي، وهو على صور فمنه تبرك بفعل منه تبرك بذات ومنه تبرك بطعام وشراب وغير ذلك

أقسامه و أحكامه :

الأول : التبرك المشروع ، وهو التبرك بما دل الدليل الصحيح على أنه بركة ، ومن أمثلته :

١- التبرك بذات النبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة ، و ما انفصل منه كشعره، و قد جاءت النصوص بذلك، فعن عائشة رضي الله عنها "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات، فلما ثقل كنت أنفث عنه بهن وأمسح

بيده نفسه لبركتها " ، وقال أنس : " لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم و الحلاق يحلقه و أطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل " .

٢- التبرك القولي المشروع ، كالتبرك بقراءة القرآن و الذكر ، فقد دلت الأدلة على الفضائل و المنافع الدينية و الدنيوية لمن قرأ القرآن و الأذكار ، و كقول النبي صلى الله عليه وسلم عن سورة البقرة : " أخذها بركة "

٣- التبرك بالبقاع بالطريقة المشروعة ، كالتبرك بالمسجد الحرام و النبوي و الأقصى، فكما في الأحاديث أن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، و في النبوي بألف صلاة، و كالتبرك بسكنى المدينة ، و هناك بلاد مباركة كالشام ، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بالبركة للشام و اليمن .

تنبيه : أمران لا بد من التنبه لهما ، وهما ١- المتبرك به ٢- طريقة التبرك به ، فإذا قلنا أن المساجد الثلاثة يُتبرك بها، فلا يعني هذا أن يأتي الرجل ويتمسح بأرضها !! ، بل لا بد من الطريقة المشروعة ، فيكون التبرك بها بالصلاة فيها، فلكل شيء مبارك طريقة شرعية للتبرك به، فالقرآن بقراءته يُتبرك وبالعمل به و تدبره وسماعه، و المساجد بالصلاة فيها ، وبعض البقاع بسكناها و الموت فيها –كالمدينة – ، فمتى خالف الطريقة المشروعة كان ذلك بدعة .

٤- التبرك ببعض المجالس ، كمجالس الصالحين العامرة بالذكر ، فكما في الحديث القدسي : " هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم " .

٥- التبرك بشرب و أكل ما دل الدليل على بركته ، كما زمزم و زيت الزيتون و غير ذلك مما دل عليه الدليل، ففي الحديث عن ماء زمزم : " إنها مباركة " وقال تعالى عن شجرة الزيتون : ((شجرة مباركة)) وفي الحديث : "كلوا الزيت وادهنوا به فإنه شجرة مباركة".

٦- التبرك ببعض الأزمان و الأوقات الفاضلة ، كشهر رمضان و العشر الأواخر منه وليلة القدر ، و العشر الأوائل من ذي الحجة ، و الأشهر الحرم ، و ثلث الليل الآخر ،

وعاشوراء وغير ذلك، ويكون التبرك بالطريقة الشرعية، فمثلا يتبرك بعاشوراء بصومه لا بالضرب و النياحة كما تفعل الرافضة.

٧- التبرك ببعض الأحوال و الهيئات ، كأن يكون العبد ساجداً ، أو صائما أو مظلوما أو مسافراً ، أو إماما عادلاً، و نحو ذلك ، فيتبرك بالطريقة المشروعة ، فأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وفي الحديث : " ثلاثة لا تُرد دعوتهم : الإمام العادل، و الصائم حين يفطر، و دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام و تُفتّح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز و جل : و عزتي لأنصرنّك ولو بعد حين " . وفي حديث آخر : " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده ، و دعوة المسافر ، ودعوة المظلوم " .

٨- التبرك بالعبادات القلبية و العملية ، فإن لها بركة عظيمة منها أن العلم يتبارك ، قال تعالى : ((و اتقوا الله و يعلمكم الله)) ، و تزيد التثبيت قال تعالى : ((وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا)) ، وقد جاء في تفسير قول الله عن قول عيسى عليه السلام ((و جعلني مباركا أينما كنت)) أن بركته في نفع الغير و تعليم الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

الثاني : التبرك الممنوع ، وهو على نوعين : أ- شركي ب – بدعي

أ – التبرك الشركي : ما يقع فيه صاحبه في الشرك الأكبر ، ومن أمثلته :

١- أن يعتقد أن هذا المبترك به يهب البركة بنفسه فيبارك في الأشياء استقلالا ، فهذا شرك أكبر .

٢- أن يطلب منه الخير و النماء فيما لا يقدر عليه إلا الله أو أن يعتقد هذا فيه، فالله وحده سبحانه هو موجد البركة وواهبها، فاعتقاد أنه غيره يبارك استقلالا أو يطلبها من غيره شرك أكبر ، وفي الحديث : " البركة من الله " .

ب- التبرك البدعي : وهو التبرك بما لم يدل عليه الدليل المعتبر ، ومن أمثلته :

١- التبرك بذوات الصالحين وما انفصل منها، كالتمسح بهم و بملابسهم ، كما تفعل الصوفية و الرافضة ، فإن هذا لا دليل عليه ، وهو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، لذا لم يتبرك الصحابة بأبي بكر – رضي الله عنه – .

٢- التبرك ببعض الأزمان بصيامها أو فعل عمل معين فيها، ولم يدل الدليل على ذلك ، كالاحتفال بالمولد النبوي وما يقع فيه ، و كما يفعل الرافضة في عاشوراء ، و نحو ذلك، فالصحابة و السلف لم يفعلوا ذلك ولا دليل عليه، وفي الحديث : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد "

٣- التبرك ببعض البقاع بلا دليل ، كالتبرك بالأماكن التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء عن عمر رضي الله عنه : " إنما هلك من كان قبلكم أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً، من مر بشيء من هذه المساجد فحضرت الصلاة فليصل و إلا فليمض " وكذا أمر رضي الله عنه بقطع شجرة بيعة الروضوان ، ومن أمثلة ذلك أيضا التبرك بالعبادات التي لم تشرع عند القبور و التمسح بالقبور ، و بالآثار و الأشجار ونحو ذلك مما هو بدعة لا أصل لها .

٤- التبرك ببعض الأحوال والهيئات و الأفعال البدعية التي يظنها الجهلة عبادة ولم يدل الدليل على التبرك بها ، كأحوال الصوفية ، و هيئة الاجتماع عند الذكر أو الرقص و غير ذلك .

٥- التبرك بما دل الدليل على أنه بركة ، لكن بطريقة غير مشروعة ، فمثلا : دل الدليل على أن المساجد الثلاثة بركة، ولكن طريقة التبرك بها هو بالصلاة و الذكر و الاعتكاف ونحو ذلك ، فمن تمسح بها ، فهو مبتدع، وكذا زيارة القبور الشرعية يكون بالسلام عليها و دفن الموتى فيها و الدعاء لهم بالرحمة ، لا بالتمسح بها و الصلاة فيها ونحو ذلك .

الولاء و البراء

أولا : مفهوم الولاء و البراء

١- في اللغة :

أولا: معنى الولاء لغة:

الولاء مصدر من والى يوالي ولاء وموالاة، بمعنى: أحب، وقرب، وأدنى، وحابى. والمولى: الحليف، وهو من انضم إليك فعز بعزك، وامتنع بمنعتك، وتولاك الله: أي نصرك. والولي ضد العدو، وهو: المحب، والصديق، والنصير، والتابع١ . فالولاء على هذا يعني في اللغة: الحب، والدنو، والقرب، والنصرة.

ثانيا: معنى البراء لغة

البراء مصدر من برئ يبرأ براء وبراءة بمعنى: أبغض، وتباعد، وتخلص. يقال: بارأت الرجل، إذا فارقته، وبارأت المرأة، إذا صالحتها على الفراق. وبرئت من كذا، إذا تخلصت منه، وتنزهت، وتباعدت عنه، وبرئ المريض برءا وبرءا، إذا شفي وتخلص مما به. وبرئ فلان من فلان، إذا تباعد وتخلى عنه٢؛ فالبراء لغة يأتي بمعنى التخلص، والتنزه، والتباعد، والتباغض، والتجافي، والمفارقة.

٢- في الشرع :

أولا: معنى الولاء شرعاً

الولاء في الشرع: موافقة العبد ربه فيما يحبه و يرضاه من الأقوال و الأفعال و الاعتقادات والذوات، فيحب ما أحبه الله من ذلك وينصره .

ثانيا: معنى البراء شرعا

البراء في الشرع: هو موافقة العبد ربه فيما يسخطه ويكرهه ولا يرضاه من الأقوال و الأفعال و الاعتقادات و الذوات، فيبغض ما أبغضه الله من ذلك ، ويعادي ما يبغضه الله .

ثانياً : منزلة الولاء و البراء في الإسلام :

١- عقيدة الولاء والبراء يرددها المسلم يوميا مرات كثيرة، كلما ردد كلمة الإخلاص: "لا إله إلا الله"؛ لأنها تعني البراء من كل ما يعبد من دون الله. وهذه الكلمة مزقت كل رابطة، وأهدرت كل وشيجة، إلا وشيجة العقيدة .

٢- الحب في الله والبغض في الله شرط من شروط صحة "لا إله إلا الله"؛ لأن من شروطها: حبها، وحب ما دلت عليه، وحب من نطق بها، ودعا إليها، وبغض ما يضادها.

٣- عقيدة الولاء والبراء هي أوثق عرى الإيمان. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله".

٤- تحقيق عقيدة الولاء والبراء من الإيمان. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان".

٥- تحقيق عقيدة الولاء والبراء تحقيقا تاما سبب لنيل ولاية الله عز وجل. يقول حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك".

٦- سبب لذوق القلب حلاوة الإيمان. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار".

٧- الاتصاف بصفة الحب في الله، سبب لنيل الأجر العظيم؛ فالمتحابون في الله يظلهم الله في ظله. يقول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي".

قال أبو الوفاء بن عقيل : " إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بـ (لبيك) ، و إنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة " .

ثالثا : حكم الولاء و البراء

الولاء و البراء واجب شرعي، و هو من مقتضى (لا إله إلا الله)، فلا إيمان بلا ولاء وبراء .

رابعا : الأدلة على وجوب الولاء و البراء و أنه لا إيمان إلا بهما

١- قول الله سبحانه وتعالى: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} .

٢- قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

٣-قول الله سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}

٤- قول الله عز وجل: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} .

٥- قول الله عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}

٦- قوله تعالى : ((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ))

٧- قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي"

٨- قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين "

٩- قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجد حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، و ان يحب المرء لا يحبه إلا لله، و أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يُقذف في النار " .

خامسا : متعلقات الولاء والبراء (بماذا يتعلق الولاء و البراء ؟)

اعلم أن الولاء و البراء أمر ضروري يلازم الإيمان ، وكذب من زعم أنه مؤمن ولا يتبرأ من الشرك و أهله، فإن من أحب شيئا كَرِه ما يضاده، ألا ترى أن حب أمه محبة حقيقية لا يرضى أن يُطعن في عرضها أو أن تهان ، فمن طعن في عرض أمه يكرهه ولو كان يقدم له الهدايا و المال ، فمن زعم الإيمان ثم لم يتبرأ من الشرك و المشركين لم يصدق .

إذا علمت هذا فاعلم أن الولاء يتعلق بما يحبه الله والبراء يتعلق بما يبغضه الله، فيتعلقان في الأمور الآتية :

١- الأقوال ، فالولاء يتعلق بالأقوال المحبوبة لله — كالذكر و غير ذلك - ، و البراء يتعلق بالأقوال التي يكرهها الله كالشرك و الكذب .

٢- الأفعال ، فالولاء يتعلق بالأفعال المحبوبة لله كالصلاة و الحج و الجهاد ، و البراء يتعلق بالأفعال التي يكرهها الله كالسجود لغير الله و الزنا و غير ذلك .

٣- الاعتقادات ، فالولاء يكون للاعتقادات الشرعية كالتوحيد و اعتقاد أركان الإيمان ، و البراء يتعلق باعتقادات الكفر و البدعة ، كاعتقاد الشرك .

٤- الذوات و الأشخاص ، فالولاء يكون للأشخاص الذين يحبهم الله وهم الرسل و أتباعهم، و البراء يكون من المشركين و المنافقين .

مسألة : ما حكم محبة شيء مما يبغضه الله ، و كراهية شيء من شرع الله ؟
الجواب : المحبة و الكراهية على أقسام ، منها محبة جبلّية ، لا يكلف فيها الإنسان ، بل هو مجبول عليها ، ولا يتبعها عمل ، مثل محبة السلامة و كراهية القتال لأنه تعريض للنفس للخطر ، وكذا كراهية المرأة أن يتزوج عليها زوجها وغيرتها ، فهذا لا يأثم صاحبه إذا لم ينتج منه عمل محرم، بل الصبر عليه من أعظم الأجور ، لذا جاء الحديث بفضل إسباغ الوضوء على المكاره ، وقال تعالى : ((كتب عليكم القتال وهو كره لكم و عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم و عسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم)) ، ولكن إن تعدى هذا الكره إلى الكراهية الاختيارية، فأصبحت الكراهية للتشريع ، فيكره تشريع الجهاد كراهية المنافقين له ، و كرهت المرأة تشريع التعدد ، و لم يسلموا لأمر الله وحكمته ، ولم يعتقدوا حسن التشريع و أنه لحكمة ربانية ، فهذا كفر أكبر ، قال تعالى : ((ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ))، و لو أصبح محبا للزنا و لترك الجهاد و نحو ذلك محبة اختيارية فإن أنكر حرمتها كفر، و إن أقر بحرمة ذلك لكنه أحبه محبة شهوانية نقص إيمانه بقدر مخالفته، وهناك أمور يكفر بمجرد محبتها كالشرك .

سادساً : أقسام الناس في الولاء و البراء

أولا : من يستحق الولاء المطلق ، وهم الرسل و المؤمنون الصالحون .

ثانيا : من يستحق الولاء من جهة ، و البراء من جهة أخرى ، وهو المسلم الفاسق أو المبتدع، فهذا يوالى بقدر ما معه من الإيمان ، ويُتبرأ منه بقدر فسوقه .

ثالثا: من يستحق البراء مطلقاً وهو المشرك الكافر .

مسألة: ما حكم موالاة الكافرين و محبتهم ؟

على قسمين :

١- كفرية ، وهي التولي لهم/ ومن **صورها** : محبة ما هم عليه من شرك ، أو ترك البراءة من شركهم، أو عدم تكفيرهم ، أو محبة ظهورهم على المسلمين ، أو معاونتهم على المسلمين بما يُظهرهم على المسلمين ، أو اللبث عندهم متجنسا بجنسيتهم منضماً لجيوشهم خاضعا لقوانينهم، أو مشاركتهم في شعائر الشرك بفعلها أو إقرارها و الدعوة إليها فهذا كله كفر أكبر ، قال تعالى : ((و من يتولهم منكم فإنه منهم)) .

٢- الموالاة المحرمة غير الكفرية و من **صورها** : محبتهم ومعاونتهم لمصلحة دنيوية بما لا يؤدي إلى ظهور الكفر على الإسلام ، والتشبه بهم بما ليس كفرا ، و تمجيدهم و الثناء عليهم لتقدم بعضهم الحضاري بما قد يجعلهم قدوة دون النظر لفساد عقائدهم، و توظيفهم وترك أهل الكفاءة من المسلمين، ونشر عاداتهم بما يذهب ثقافة العرب و المسلمين أو يجعلها مقدمة عليهم.

وهذا القسم من الموالاة قد يصل لكبائر الذنوب ، لكنه ليس كفر أكبر ، قال تعالى: ((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)) فسماهم الله مؤمنين مع إنكار ما وقعوا فيه، فدل ذلك أنهم لم يكفروا.

ملاحظة : المراد بالحب المأمور به ، و الكره المأمور به ، الاختياري ، لا الجبلي فإن الجبلي لا يؤاخذ به العبد، كحب الولد لوالده المشرك ، فإنه إن كان جبلي ، لابأس به ، ولكن لا يتبع ذلك العمل ، و يكرهه الكره الاختياري ، فيجتمع الحب من جانب الجبلة و الطبع مع الكره من الجانب الاختياري ، وهذا متصور ، كالولد الصالح يكره والده إن كان سكّيرا

ظالما سفاحا سارقا يقتل الأبرياء ، ومع ذلك يبقى قلبه يحبه حب جبلي فهو والده ، ولكن الحب الجبلّي لا يمنع الكره الاختياري ، ولا يترتب عليه عمل .

يقول ابن قاسم النجدي في حاشيته عند كلامه عن قول الله تعالى : ((قل إن كان آباؤكم و أبناؤكم ...)) الآية : " المراد بالحب هنا الحب الاختياري المستتبع لأثره، الذي هو الملازمة وتقديم الطاعة، لا ميل الطبع؛ فإنه أمر جبلي لا يمكن تركه، ولا يؤاخذ العبد عليه، ولا يكلف بالامتناع منه " .

وفي تيسير العزيز الحميد قال في قوله تعالى {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} : " أي: أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

وقد ثبت في "الصحيحين" أنها نزلت في أبي طالب، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في حقه، ويحبه حبًا طبْعيًا لا حبًا شرعيًا، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه، واختطف من يده، واستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحجة البالغة "

سابعا : العلاقة بين البراءة من الكفار و معاملتهم

اعلم — وفقك الله — أن الكافرين لا يُعاملون معاملة واحدة ، فهم على مراتب ، فالحربي لا يُعامل معاملة المستأمن و المعاهد و الذمي ، بل لكل واحد معاملة تخصه ، بل قد يكون البر و المعروف مع البراءة ، كمعروف الولد المسلم لوالديه الكافرين ، قال تعالى : ((وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا))، فمن الخطأ معاملة الكافرين معاملة واحدة على شتى أصنافهم ، بل قد يكون من الكبائر ، ألا ترى أن قتل الكافر الحربي وجهاده من أعظم الطاعات، وقتل المعاهد والذمي من الكبائر ، كما قال صلى الله عليه وسلم : "من قتل ذميا أو معاهداً لم يرح رائحة الجنة " ، بل يجب على المسلمين حماية المستأمنين و الذميين ، و يجب عليهم قتال الكافرين الحربيين ، فمن الخطأ عدم

التمييز بين أصناف الكفار في هذا، فالحربي لا يعامل معاملة المعاهد فلا يرحب به ولا يُتعاون معه و لا يُتلطف له ، و المعاهد لا يُعامل معاملة الحربي ، فلا يُقتل .

جعلك الله من أهل ولايته ممن علم وعمل و قام بالدعوة فصبر

تم بحمد الله